
23
Looloo
dvd4arab

مقدمة

ومع ذلك قد أظل حيًا ..!

صحيح أن حرارتى قد تجاوزت الـ ٣٩ درجة ، وصحيح أننى أرتجف كذيل حية الجرس ، وصحيح أن مكتبى عامر بالأدوية التى تبتلع وتشم وتحقن وتدهن وترش .. ، وصحيح أن طبيبى - وهو من تلاميذى - لم يبد مهتمًا بعلاجى كثيرًا على اعتبار أن رحيلى أو بقائى لم يعد يعنى أحدًا ..

لكن هذه الدلائل كلها لا تشير إلى قرب رحيلى أكثر مما تشير الغيوم إلى قرب هطول المطر ..

من يدرى ؟ .. قد تشرق الشمس من جديد ، وتبدد هذه الغيوم السخيفة هازئة بعلماء الأرصاد جميعًا ..

ومن يدرى ؟ .. قد أظل حيًا لأحكى لكم قصة .. اثنتين .. مائة من قصصى الكابوسية ذات المذاق الكريه ..

هل تذكرون من أنا ؟ ..

من جديد أكرر : أنا د . (رفعت إسماعيل) العجوز .. الطبيب المتقاعد هاوى الأشباح والغرائب .. ، والشبيه

بورقة الكرم الأخيرة فى تلك القصة التى نسيت اسم كاتبها .. لقد ظلت البطلة طيلة القصة تنتظر سقوط الورقة من غصنها .. لكن الورقة ظلت متشبثة بالغصن فى عناد لا يوصف .. ولهذا سرٌ لن أحكيه ؛ لأن المجال ليس مجاله ....

والآن .. دعونا نتحدث عن رعب المستنقعات ..

إنه لاسم موح .. ذو رنين يجمد الدماء فى العروق .. وإننى لأرجو أن تكون القصة على مستوى عنوانها .. لحظة حتى أغلق جهاز (الكاسيت) ..

هاهو ذا ! .. لحظة أخرى حتى آخذ (كبسولة) المضاد الحيوى .. فالساعة الآن التاسعة مساء كما ترون .. ذكرونى فقط أن آخذ الجرعة التالية فى الثالثة صباحًا .. فليس هناك من يقدم لى الدواء سواى .. جلوب !.. جلوب !...

والآن .. أنا جاهز وطوع أمركم يا رفاق ...

هيا بنا ....

١ - خطاب جديد ..

مازلنا - إذن - فى العام ١٩٦٩ ..

ومازلت - إذن - فى دارى أتسلى بمطالعة كم الخطابات الهائل الذى بدأ يصلنى من بقاع المعمورة ..

خطابات كتب بعضها بحروف تتجه من اليمين إلى اليسار .. وبعضها يتجه من اليسار إلى اليمين .. وبعضها يتجه من أعلى إلى أسفل .. وبعضها يشع من نقطة واحدة فى المركز !..

خطابات لها رائحة البارفان الأنثوى أو (لوسيون) الحلاقة الرجولى ، أو تبغ الغلايين أو البصل ، أو رائحة الخفافيش الميتة ، أو رائحة عرق مصاصى الدماء ، أو رائحة عصير القصب ، أو رائحة لبن الماعز المختمر .. أو (الفودكا) !..

الخطاب الذى توقفت عنده اليوم له طابع القصة .. ويحمل رائحتها .. لهذا هو قصة اليوم ..

وهو يتلخص فى مفكرة مهترئة صغيرة الحجم ، وورقة واحدة تم طيها بحيث تحيط بالمفكرة ..

والورقة تحوى السطور التالية بالإنجليزية :

عزيزى د . (إسماعيل) :

هذه المفكرة تحوى الأحداث المريبة والمفزعة التى وقعت شمال (إسكتلندا) فى الفترة من ١٩٦٧/١٢/٢٢ إلى ١٩٦٨/١/٢ . وأنا على يقين بأنك واجد فيها ما يثير شغفك واهتمامك . ولربما أكثرت من الأسئلة فأمعنت فيها .. ولربما وجدت إجابة .. ولربما لم تجد ..

كل هذا لا يهم ، طالما أنك قد شعرت بتلك الكهرباء المقدسة تزحف على مؤخرة عنقك ، وتسلبك القدرة على النوم .. وطالما انفتحت أبواب موصدة فى خيالك حسبت أن مفاتيحها قد ضاعت منذ زمن سحيق ..

عندئذ ستدخل .. ولسوف يملؤك الفرق .. بعدها تشعر بتلك اللذة الحريفة .. اللذة المريرة القادمة من أعمق آيات الرعب ، ولتحتفظ بالمفكرة يا سيدى العزيز كما تشاء بعد أن تفرغ منها .. فأنت على ذلك أقدر ، وبه أجدر ..

أما أنا .. فكفانى ما لاقيت مع هذه السطور الدامية ، فأنا أعرف أننى لن أجد فى نفسى حاجة إلى هذه المفكرة مرة أخرى ..

المخلص : س . ب

هكذا فحسب ! .. واضح أن هذا الأخ (س . ب) غير مولع بالثرثرة وإن كانت إنجليزيته راقية إلى حد لاشك فيه .. وخطه جميل (صناعى) من النوع الذى لا يخرج إلا من آلة أو إنسان يملك يد آلة ..

أعددت لنفسى قدحا من الشاى الردىء ، وعدت إلى مقعدى الوثير وبدأت أتفقد ـ بأسلوب (الفرّ) المعروف ـ صفحات المفكرة .. كانت فى حالة سيئة فى الواقع ؛ تناثرت البقع فى أرجائها ، وأزالت كثيرًا من الحبر ، وجعلت الصفحات تتجعد فى مواضع عديدة ..

وجدت بعض عبارات أثارت شغفى ، لكنها ـ كما يحدث فى هذه المواقف ـ كانت تتراءى لعينى فى لمحة ، فإذا حاولت الرجوع إلى موضعها وجدت هذا مستحيلا ...

« كان الخطر قادما .. » ، « الموتى العائدون » ، « ولكن الجثة لا تفزعنى .. » ..... إلخ ..

إذن .. فلنحاول أن نقرأ بهدوء أكثر ..

فى الصفحة الأولى ـ باطن الغلاف بمعنى أدق ـ كانت هناك العبارات التالية :

مجموعة النداء الأولى :

أرتميس ـ كاسيس ـ هرملاكايوس

ثم بيركادوس (أربع مرات) .
مجموعة النداء الثانية :
أشيوست ديمترا - إرسادوك
(فى وجه القمر) .
ثم ....
« إينياس (تعمل وحدها دون معين) ».
ثم ملحوظة عابرة كتبها صاحب المفكرة الأحمق :

« لا تحاول ترديد هذه العبارات بصوت يعلو على صوت وجدانك إلا بنية الاستعمال . فيما عدا ذلك تتم القراءة سرًا وبالعينين فقط .. »

هنا - أصارحكم يا إخوان - بدأ (الفأر يلعب فى عبّى) .. والشعيرات إياها على ساعدى تنتصب ..

هذه تعويذات لاشك فيها .. ومذاقها يوحى - كما هى العادة - بالشياطين والعياذ بالله .. ربما هى لاستدعائها أو الفرار منها لا أدرى بالضبط ، لكنى على كل حال لم أعد مستريحًا فى جلستى .. ولكم أن تفهموا ذلك ..

منذ متى يوجد هذا الركن المظلم فى صالة دارى ؟ إن إضاءة شقتى ليست على ما يرام أبدًا .. أضف لهذا أن هذا التمثال الصغير الموضوع جوار باب غرفة النوم

لا يبدو جميلاً .. يخيل لى أنه يراقبنى بشكل أو بآخر ..
ثم إن ....

لحظة ! .. هل سمعتم هذا مثلى ؟.. ثمة شخص يتحرك فى المطبخ .. لاشك فى هذا ..

إن أعصابى توشك على الاحتراق تمامًا .. والسبب بالطبع هذه الكلمات اللعينة ذات المذاق الغامض .. والغموض مرعب دائمًا ومنذ أن اصطك الإنسان هذه الكلمة ..

إن هناك حلاً واحداً يضمن لى سلامة قواى العقلية ، وأنتم جميعًا تعرفون هذا الحلّ ....

نعم ... هو كذلك !

* * *

- « بسم الله الرحمن الرحيم ! .. قد عاد الكابوس الحىّ ! »

هتف (عزت) - جارى العزيز - فى هلع وهو يفتح الباب ليرانى أقف على باب الشقة حاملاً المفكرة فى يد ، وكوب الشاى فى يد .. وأحاول أن أبتسم فى تودد ..

- « هل لديك كائن بروتوبلازمى آخر يا جلاّب المصائب ؟ »

قلت له فى رقة وأنا أدخل شقته :

- « ما هذا الهراء يا (عزت) ؟ .. نحن الاثنان جاران .. وكلانا وحيد كالمجذوم .. برغم هذا لا نرى بعضنا إلا لمامًا .. لماذا لا نعيد تجديد صلاتنا من حين لآخر ؟ » .

- « جئتَ متوددًا إذن لا مهددًا ؟ » .

- « جئتُ أخًا .. » .

- « في منتصف الليل ؟ » .

- « إنما نحن طفلا الليل التوءمان .. » .

- « إذن اجلس عليك اللعنة .. » .

وجلست .. هذا هو كل ما أصبو إليه .. دفء الصحبة الآدمية وأنفاس شخص أعرف يقينًا أنه ليس شيطانًا ولا جنيًا ولا مصاص دماء ولا مسخًا .. صحيح أن (عزت) يبدو كهذا كله ، لكنه مظهره الذى لا ذنب له فيه ..

الآن أستطيع قراءة تلكم المفكرة فى هدوء ..

لكن (عزت) لم يكن غرًا ساذجًا ، ولم يكن ليفوت الفرصة الثرية التى قدمها له القدر بعد منتصف الليل ..

وهكذا شرع يثرثر عن عبقريته ، وعن أعماله الفنية الرائعة حتى تمنيت أن أدسّ إحدى هذه التحف فى حلقه ليخرس تمامًا .. ، لهذا قلت له فى فتور :

- « (عزت) .. لماذا لا تنهض وتمارس عملك ؟ »

- « لن أتركك تشعر بالسأم .. » .

- « كيف أشعر بالسأم وأنا أرى ميلاد عبقرية أمام عينى ؟ » .

- « ربما أنهض .. ولكن بعد قليل .. » .

عليه اللعنة ! .. لن أتخلص من هذا اللزج أبدًا .. كأنه ليس من أبسط حقوقى البشرية أن أذهب إلى شقة جارى بعد منتصف الليل لأقرأ ما أريد عنده ! ..

هنا مال ليرى المفكرة ..

وفى فضول تساءل :

- « ما هذه ؟ » .

- « يخيل إلىّ أنها مفكرة .. » .

- « ردّ ينم عن ذكاء .. دعنى أرها .. » .

ومدّ يده وأمسك بها وراح يتصفحها .. لحسن الحظ أن إنجليزيته رديئة جدًا برغم كثرة من يلقاهم من أجانب ..

نهضت أتفحص تمثالاً مرعبًا فى ركن الغرفة ، يمثل رجلاً يتألم وهو يحاول أن يفقأ عينه بدبوس شعر ..

- « موضوع غريب بعض الشىء يا (عزت) ؟» .

- « هذا (أوديب) يا (رفعت) فى قمة مأساته .. » .

- « أعرف هذا .. لا يوجد أناس كثيرون من هواة فقء عيونهم الخاصة فى هذا العالم .. لكنه موضوع شاذ » .

- « ليس أكثر شذوذا من هواياتك الخاصة .. تأمل هذا الهراء الذى تقرؤه .. » - وراح يتلو بالإنجليزية الرديئة بعض العبارات - « مجموعة النداء الأولى : أرتميس - كاسيس - .... إلخ » .

كنت أنا أتأمل التمثال فى فضول وأدور حوله ، وقد هالنى مدى قبحه وبشاعته ، لهذا لم أعط اهتماما لما يقوله (عزت) بصوت عال .. وبلهجة خطابية مزعجة .

- « إينياس (تعمل وحدها دون معين) .. ملحوظة : لا تحاول ترديد .... » .

وهنا انتبهت إلى ما حدث ..

رفعت عينين مشدوهتين إلى (عزت) لأجده منهمكا فى القراءة ، وهو يؤرجح رأسه يمينا ويسارا ليبدو ظريفا .

قاطعته بصوت مبحوح :

- « (عزت) .. أ .. هل قرأت الأسماء كلها ؟ » .

- « هه ؟ .. طبعا .. » .

- « بـ .. بصوت مسموع ؟ » .

- « ماذا تعنى ؟ » .

- « لا شىء .. لا شىء .. كنت شارد الذهن لا أكثر ! » .

★ ★ ★

٢ - الكوخ ..

سأحاول أن أكون موضوعيا ...

قد وعدتكم أننا سنقضى الوقت بين صفحات المفكرة ، فلا داعى إذن لأن أستولى على القصة فى هذه المرة ..

الموقف كما يلى : أنا جالس على الأريكة فى دار (عزت) أطالع المفكرة ، بينما هو عاكف على كتلة من الصلصال يشكلها بيديه العاريتين .. فى فمه غليون يطبق عليه بأسنانه .. بتلك العصبية وذلك الغلّ اللذين رآهما فى مثالين آخرين سواه ، فقرر تقليدهما .. وعلى صدره تلك المريولة البلاستيكية التى يسميها الأطباء (ماكنتوش) ..

لن أصارحه برأيى فى أن كتلة الصلصال تبدو هكذا أجمل مما ستكون عليه بعد أيام من العمل المضنى من جانبه .. موسيقا (شوبرت) تفوح كالعطر فى المكان و ..

- « ليس (شوبرت) يا (رفعت) .. بل (ليست) .. ظننتك تعرف الفارق بينهما .. » .

لن أصارحه مرة أخرى أننى العدو رقم واحد للموسيقا الكلاسيكية ، ولأعد الآن إلى المفكرة ..

للإنصاف أقول : إن المفكرة مكتوبة بنظام ودقة .. لكن ما بها لا يكفى - لو نشر - ليغطى أربعين صفحة .

لهذا سأعيد السرد .. ولكن بطريقة أكثر تفصيلاً وتمهلاً ..

وبأسلوبى أنا ....

* * *

شىء ما ....

* * *

تدور أحداث هذه المذكرات فى الفترة من ٦٧/١٢/٢٢ حتى ٦٨/١/٢ ..

* * *

من البداية يسهل عليك معرفة أن صاحبة المفكرة هى السيدة (هيلين ماكجواير) زوجة (أندرو ماكجواير) ..

يبدو واضحا كذلك أن (أندرو) مهندس معمارى ، وأن شيئًا ما ليس على ما يرام بينه وبين (هيلين) .. فهى تتحدث عنه بشىء من فتور وعدم ود .. صحيح أنها لا تناديه بأسماء على شاكلة (المدعوق) أو

(اللى ما يتسماش) على غرار زوجاتنا المصريات ذوات الحس اللغوى المرهف ؛ لكنك تقرأ هذا مما بين السطور ...

الأخ (أندرو) راغب فى قضاء وقت طيب فى الكوخ الذى يملكه ؛ وهذا الكوخ يقع شمال (أسكتلندا) قرب أخدود (جلن الكبير) الذى يقسم مرتفعات (أسكتلندا) إلى شطرين ينحدر أحدهما نحو (لوخ موند) وينحدر الآخر نحو (أبردين) ..

هناك - لمن يعرفون (أسكتلندا) - يوجد ممر يُدعى (ممر سبتال أوف جلنشى) .. تتفرع بقرب هذا الممر ألعن شبكة مستنقعات فى (إنجلترا) .. هى عبارة عن مساحة شاسعة من المياه الراكدة شيطانية الرائحة ، تنعقد فوقها شبكة من الضباب وسحب غاز (الميثان) التى تحيل المكان جحيمًا حقيقيًا ....

لم يكن واحد من الأقدمين يقصد هذه المستنقعات قط .. ، فهى لا تبدو مكانًا محببًا للنزهة ..

وعلى كل حال .. كان من السهل أن يضل المرء فيها .. أو يغرق .. أو تنزلق قدماه ويدق عنقه ...

وبالطبع لم يكن كوخ (أندرو) وسط هذه المستنقعات ؛ لكنه قريب منها إلى حد كبير .. يوجد



بالطبع لم يكن كوخ (أندرو) وسط هذه المستنقعات ؛ لكنه قريب منها إلى حدّ كبير ..

ممرّ ما بين الأشجار يقودك من باب الكوخ إلى تلك الأوحال ..

أما الكوخ ذاته فكوخ ريفي جميل مصنوع من الأخشاب ، ومعدّ لإقامة أربعة أفراد به .. ، وكان الوصول إليه يتم عن طريق الصعود بالسيارة في طريق صاعد .. ثم العبور فوق جسر صغير عتيق .. وعندئذ تجد نفسك في جنة (ماكجواير) ..

لاحظتَ كذلك أن المرأة تصف الكوخ في مذكراتها بشيء من التفصيل وهو غير معتاد بالنسبة لشخص يكتب لنفسه .. فأنت لا تسوّد عدة صفحات من مذكراتك في وصف غرفة نومك لنفسك .. لكني فهمت مجازًا أن المرأة تزور الكوخ للمرة الأولى في حياتها ، زوجها اعتاد المجيء إليه .. أما هي فمبهورة مدهوشة من كل شيء .. وهي لا تحب هذه الرحلة كثيرًا وهو شيء طبيعي ما دمنا نعلم أنها لا تحب زوجها - هو الآخر - كثيرًا ..

بقي أن أسمي لك الضيفين المرافقين للزوجين ..

هما زوجان شابان .. مسز ومستر (ستوكلي) .. بالطبع لم تذكر المفكرة شيئًا عن مظهرهما لهذا أترك تخيل هذا المظهر لخيال القارئ .. وهي مهمة سهلة ..

إن عبارات على غرار (داعب شاربه بيده) أو (سال العرق على لغده البدين) أو (راحت تمشط خصلات شعرها الأشقر) أو (ضحك كاشفا عن أسنانه النخرة) تكون كافية فى العادة لرسم صورة لا بأس بها للأبطال .

يعتزم الزوجان (ستوكلى) قضاء العطلة مع الزوجين (ماكجواير) فى كوخهما .. لا أدرى أية عطلة هى .. ولكن .. بالتأكيد ..! .. ٢٢ ديسمبر .. لابد أنها إجازة أعياد رأس السنة .. وهى ما هى بالنسبة للأجانب حيث تختلط الثلوج البيضاء بالأناشيد .. ويختلط صوت أجراس الكنائس بصوت الأجراس المعلقة فى رقبة (الرنة) ، وهى تنهب الثلوج حاملة (بابا نويل) وما معه من هدايا ، سيدسها فى جوارب الأطفال المعلقة على حاجز المدفأة ..

وهكذا ...

نرى أن المفكرة تبدأ برحلة تقوم بها المجموعة الرباعية فى سيارة صغيرة تحمل على ظهرها لوازم الإقامة كاملة ..

وهى رحلة طبيعية لا مشاكل فيها سوى الصمت المطبق ما بين الزوجين (ماكجواير) .. ذلك الصمت الذى جثم فى السيارة ككابوس أسود عتيق ؛ وأصاب

الزوجين (ستوكلى) بعدوى الصمت .. صمت الحرج هذه المرة ...

وتتحدث مسز (ماكجواير) هنا عن لعنة الإجازات .. فتقول :

ـ « لعنة الإجازات هى لعنة أزلية تحل بكل من يقرر قضاء إجازة .. خاصة إذا كان الزوج مثقلا بالأعباء والهموم . عندئذ يبدو متوترا عصبيا نافد الصبر فى ليلة السفر .. ويغدو على استعداد للشجار لأى سبب وأوهى سبب .. ولهذا يندر أن يكون الزوجان على ما يرام فى الصباح قبيل سفرهما .. لابد من مشاجرة تفسد كل شىء .. ويتحول السفر إلى نوع من أداء الواجب ، وإيفاء لالتزامات وارتباطات عدة بعضها شخصى وبعضها مالى .. ، إن لعنة الإجازات أبدية ولا ترحم أحدا .. وعندما تأتى لا يبقى معنى لأى شىء » .

هذا هو ما قالته بأسلوب لا بأس به ..

نعود الآن إلى السيارة التى يسود جوها ذلك الفتور الصامت .. أو الصمت الفاتر ..

كان على (أندرو) عبور الجسر .. وهو أخطر جزء من الرحلة بسبب الهاوية العميقة التى تتمدد تحت الجسر كوحش يفغر فاه ..

فى البدء غادر السيارة ونزل يتفقد أخشاب الجسر بقدمه ، كجندى يمهد لعبور رتل من الدبابات فوق جسر ألمانى يسيل له لعاب المقاومة الفرنسية ..

- « لا بأس .. ! »

وببطء عاد إلى السيارة وأدار محركها ..

وراحت العجلات تتحرك بحذر فوق الأخشاب المقعقعة .. والجسر ذاته يهتز يمينا ويسارا ..

- « أندرو » ! .. كفاك هذا .. فلنعد ! »

قالتها (سارة ستوكلى) فى توتر من المقعد الخلفى .. لكن أوان التراجع قد ولى .. فالسيارة الآن فى منتصف الجسر .. والعودة تحمل ذات خطر التقدم ..

كرىىى كريك ! .. كريك ! .. تشوك !

وأخيرا ! .. تلمس عجلات السيارة أرضا ثابتة ، وتخرج الأنفاس من الصدور بعد طول احتباس ..

صاح (جون ستوكلى) فى مرح :

- « كانت تجربة مثيرة يا زميلى ! .. لكنها خطرة .. »

رسم (أندرو) ابتسامة مفتعلة على شفتيه اللتين تيبستا من طول الوجوم .. وقال :

- « كانت هذه مبالغة منى .. فالجسر أقوى مما يبدو .. » .

- « أوه .. ربما .. لكن كل شىء يكف عن أن يكون جيدا فى لحظة معينة من حياته .. وهذا الجسر شىء .. قد تكون هذه هى اللحظة المقصودة ! » .

- « إن هذا يحتاج إلى نحس مبالغ فيه .. » .

ومن جديد ساد الصمت ..

الكوخ يتبدى من بعيد .. فى الواقع بدا لهم كأنهم ثابتون والكوخ هو الذى يدنو منهم أكثر فأكثر ..

قالت مسز (ستوكلى) وهى تشهق انبهارا :

- « إنه جميل .. » .

وقال زوجها فى مرح :

- « إن ذوق (أندى) جميل يا (هيلين) .. ألا ترين ذلك ؟ » .

- « هم م م م ! » .

قالتها فى فتور دون أن تتخلى عن طابع (الاشمئناط) العام الخاص بها .. ، وتوقفت السيارة .. ونزل الرجلان منها لينزلا حاجيات السفر والحقائب من على ظهرها ..

مسح (أندرو) عويناته (إذن هو يرتدى عوينات) واتجه بحمله الثقيل إلى الباب ، فأولج المفتاح فى القفل العملاق العتيق المعلق هناك .. وفى حذر فتح الباب

محدثا ذلك الصرير الحزين الطويل لباب عجوز يتأوه من آلام مفاصله ..

على حين وقف (جون) جواره يتأمل المكان ..

- « لقد تكاثف الجليد حقا .. » .

قال (أندرو) لاهثا وهو يحمل حقيبته :

- « إن داخل الكوخ هو جنة حقيقية فى ليالى الشتاء ... وهذا هو البرنامج الأساسى لنا .. » .

ثم نادى المرأتين كى تلحقا بهما ...

وبينما المرأتان قادمتان تتعثران وسط الجليد المتراكم على الأرض ؛ مال (أندرو) وهمس بشىء ما فى أذن رفيقه ..

لم تسمع (هيلين) - صاحبة المذكرات - ما قيل طبعا .. لكنها عرفته بعد أيام ، كان ما قاله (أندرو) لـ (جون) هو :

- « يخيل إلىّ أن هناك من عبث فى محتويات الكوخ ... ولكن لا تخبر المرأتين بذلك الآن !! » .

....

* * *

٢ - أحدهم كان هنا ..

شىء ما يتحرك هناك ......

* * *

توجد أخشاب فى المدفأة .. يرونها فى الضوء الخافت ..

اتجه (أندرو) إلى هناك ، واستعان بعود ثقاب وزجاجة من (الكيروسين) ليشعل النار فى هذه الكومة .

الدفء يغمر المكان بذلك الإحساس البهيج .. النار .. أول صديق للإنسان وأول عدو له .. ذلك الوحش رائع الجمال يرقص رقصته السرمدية وضوؤه الذهبى يترقرق على الوجوه ..

بعد هذا حمل (أندرو) (جركن) عملاقا من المازوت ، واختفى بعض الوقت .. بعد ثوان تعالى صوت الهدير الكئيب المميز لمولدات الكهرباء ..

وعاد باسما ليعلن لهم :

- « يمكنكم إضاءة المصابيح الآن .. » .

بعد الضغط على عدة مفاتيح غمر النور البهيج المكان ..

كان الكوخ فى حالة جيدة .. واستطاعوا أن يروا (أنتريه) صغيرًا أنيقا بقرب المدفأة .. وفراء دب يغطى الأرضية الخشبية ، وفوق رف المدفأة توجد ساعة حائط يدق بندولها بانتظام وعقاربها تشير إلى الوقت الصحيح : الثالثة بعد الظهر ..

كانت هناك مكتبة مشى لها (جون) ووقف يتأمل كعوب مجلداتها .. مسرحيات (شكسبير) .. الإنجيل .. قصص عن (روب روى) .. ومجلد سميك له كعب مهترئ كتب عليه بخط مذهب : إكلييوس ..

سألت (سارة) صديقتها وهما تصطليان أمام النار :

ـ « كيف تأتى أنك لم تجيئى هنا قط ؟ »

مدت (هيلين) يدها إلى حقيبة يدها فتناولت علبة سجائر ، وأخرجت لفافة دستها بين شفتيها .. لم تكن فى حياتها من المدخنات ، لكنها تعلمت من السينما أن مضطربى الأعصاب الفاشلين فى حياتهم يدخنون بشراهة .. وهى كانت مضطربة الأعصاب فاشلة فى حياتها ، أو هكذا كانت تعتبر نفسها منذ عام ..

قالت لـ (سارة) وهى تشعل لفافة التبغ :

ـ « كان يهوى هذا الكوخ قبل زواجنا .. ونحن متزوجان منذ عام أو أكثر قليلا كما تعلمين ، فلم تتح لنا الفرصة للقدوم هاهنا معًا .. » .

همست (سارة) وهى تتأمل النار :

ـ « إنه لمزاج غريب إلى حد ما .. هذا الانعزال .. وكل هذه المستنقعات .. » .

ـ « يقول دومًا عبارة واحدة : إنه يثير الخيال .. » .

ـ « إنه على حق ... » .

وعادت الصديقتان تتأملان النار ..

★ ★ ★

(جون) و(أندرو) يتهامسان حيث وقفا أمام المكتبة ..

تساءل (جون) وهو يقلب صفحات (شكسبير) :

ـ « ما الذى دعاك للظن بأن هناك من دخل الكوخ ؟ »

قال (أندرو) فى صوت خفيض جاد :

ـ « هذا النظام والتنسيق المبالغ فيهما .. لا يوجد غبار .. لا خيط عنكبوت واحدًا .. لا رائحة عطن .. لا تنس أننا نتحدث عن كوخ لم أدخله منذ أكثر من عام .. » .

ـ « هل تعنى أن هناك من كان يتسلل إلى الداخل .. ويقوم بأعمال التدبير المنزلى متطوعًا ؟ »

ـ « لا أدرى .. أشعر أنه كان هناك من يسكن هنا .. » .

ـ « وهل فحصت النوافذ ؟ » .

ـ « كلها موصدة من الداخل بمزاليجها المزدوجة .. والقفل على باب الكوخ لم يتزحزح من موضعه .. كل شىء على ما يرام .. » .

ـ « إذن أنت تهذى .. » .

ـ « أتمنى هذا .. لكنى أستبعده .. » .

ثم أضاف (أندرو) وهو يحدق فى وجه صاحبه :

ـ « ثمة شىء آخر .. توجد أخشاب كثيرة فى المخزن.. لكنى لم أضع خشبًا فى المدفأة خلال إقامتى الأخيرة هنا .. وهذه ـ لعمرى ـ نقطة أخرى لا أرى لها تفسيرًا ! » .

★ ★ ★

منذ عامين كانت جالسة فى ذلك المطعم وحيدة ترشف الحساء وتطالع الجريدة .. ، وجاء ذلك الشاب الرزين الذى يرتدى العوينات وبدلة أنيقة تنم عن ذوق جيد ..

فى تهذيب سألها :

ـ « هل هذا المقعد خال ؟ » .

هزت رأسها أن نعم .. وسمحت له بالجلوس ، وعادت تطالع الجريدة .. كل ما علق بذهنها من وجهه هو عيناه النفاذتان المصممتان ..

لابد أنه حاول التودد إليها كثيرًا .. حاول فتح سبل الكلام .. لكنها لم تكن فى حالة نفسية مهيئة للاتصال بالآخرين .. لماذا يبحثون عنها ؟ .. لم يضايقونها ؟ ..

كان يواصل الكلام .. وهى تتجاهله ..

بعد قليل بدأ العبء النفسى يتزايد على روحها .. لا تدرى كيف حدث هذا لكنه حدث ..

شعرت بخيط من المخاط يسيل على شفتها العليا .. وبلل غير معتاد يغمر خديها .. ثم انفجرت باكية !

★ ★ ★

انتهى (جون) و(سارة) من إعداد المأكولات على المائدة الخشبية الصغيرة التى فى وسط القاعة .. ، بعض الخبز المقدد والمعلبات .. كانا قد وضعا باقى الأطعمة التى جلبوها معهم فى الثلاجة الصغيرة بالطابق الثانى ...

وللمزيد من الرومانسية أشعلت (سارة) شمعة وضعتها فى وسط المائدة ..

وجلس الأربعة يأكلون .. وإن ساد الصمت من جديد .. فكرة جديدة لشىء يقال .. شىء يقال .. راح كل منهم يجيل فكره فى أمور الدنيا بحثًا عن شىء ما يمكن أن يقطع هذا الصمت دون جدوى ..

وهنا وجدت (هيلين) عبارة مناسبة :

- « هل المستنقعات خطرة يا (أندرو) ؟ »

راح (أندرو) يلوك الطعام .. وجرع من الشراب جرعة .. ثم غمغم باسما :

- « حقًا هى خطرة .. ولا أنصح أحدا بالتجوال فيها .. » .
- « إن الجليد يزيد الأمر تعقيدًا .. » ..
- « ليس الجليد فقط ... » .

وازدادت ابتسامته غموضًا ..

★ ★ ★

- « أستميحك عذرًا .. لم أقصد أن أدميك .. » .

قالها وهو يربت على معصمها ..

كانت حائرة فى كارثة المخاط النازل من أنفها ، أين ذهب هذا المنديل اللعين ؟ .. لماذا لا تجده فى حقيبتها ؟ إن هى إلا ثانية ويتدلى على المائدة وتحدث الفضيحة .

لهذا غمرها الامتنان حين وجدت ذلك المنديل النظيف العطر فى يدها .. وعلى الفور .. بتووووووووه ! ..

أخيرًا استطاعت أن تتكلم .. قالت فى حرج :

- « أنا التى أعتذر .. لقد بدوت لك حمقاء .. » .
- « لا عليك .. ليتك تعرفين كم يحسد الرجال النساء على دموعهن .. لابد لبركان المشاعر أن ينفجر خارجنا وإلا انفجر داخلنا .. » .

وكانت هذه هى البداية ..

إن ذروة العلاقة الحميمة بين اثنين هى لحظة الدموع .. وهما قد بدآ بها .. !

واستغرق بعض الوقت ـ أيامًا ـ حتى يعرف سر بكائها فى تلك اللحظة ..

★ ★ ★

قال (أندرو) ضاغطًا على حروف كلماته :

- « هل تعرفون سر حبى العارم لهذا الكوخ ؟ » .
- « الهدوء على ما أعتقد ؟ » .
- « بل الرعب .. ! » .

قالها بصوت كالفحيح .. حتى إن الهواء الخارج من فيه مع المقطع الأخير جعل لهب الشمعة يتراقص ..

وأحست (هيلين) بقشعريرة .. فهى دون سواها تعرف حتمًا مدى صدق هذه العبارة الأخيرة ..

- « هواية غريبة على ما أظن ؟ » .
- « نعم .. الرعب .. الرعب الذى يزحف على العروق ويوشك أن يجمد الدماء فيها .. الرعب الذى يسرى فوق عمودك الفقرى كالجليد يزحف فوق ظهر دجاجة فى ثلاجتك .. » .

كانت عيناه تلتمعان وراء زجاج العوينات فى شبق



وأحست (هيلين) بقشعريرة .. فهى - دون سواها - تعرف حتمًا مدى صدق هذه العبارة الأخيرة ..

شهوانى ... وخطر لـ (سارة) أن الرجل لا يبدو على ما يرام ..

ثم إن (أندرو) مال على المائدة هامسًا .

- « هل تعرفون من كان يعيش فى هذه الأصقاع قديمًا ؟ » .

- « الجرمان ؟ »

- « كلا .. بل قبائل (السلت) .. إنها قبائل عجيبة حقًا .. ونحن لا نعرف الكثير عنهم .. لكن كل حجر هنا وكل بركة ماء تدارى سرًا عتيدًا من أسرارهم .. هل تسمعون عما يقال بصدد هذه المستنقعات ؟ »

- « لا .. » .

نهض (أندرو) إلى المكتبة تتبعه نظرات الجالسين ، وراح يتفقد الكتب فوق رفوفها .. ثم قال دون أن يدير ظهره :

- « ثمة أسطورة تقول : إنك إذا غمرت جثة فى مياه هذه المستنقعات ؛ فإنها تعود للحياة بعد أسبوع ! » .

واستدار راسمًا على وجهه بسمة شيطانية :

- « بالطبع تعود ملوثة بالأوحال .. لكنها تعود .. ألا ترون فى هذا معجزة ما ؟! » .

.... !

* * *

٤ - حكايات مشئومة ..

شىء ما يتحرك هناك بين ضباب المستنقعات ...

* * *

عندما قابل (أندرو) (هيلين) كانت فى حضيض معنوياتها ..

كانت قد انفصلت عن زوجها الأول لأنه (لم يعد يحتمل روحها البليدة) على حد قوله ..

وبعد شهر فقدت عملها كسكرتيرة فى إحدى شركات الدعاية ، وعندئذ لم يعد أمامها سوى أن تنهار .. امرأة فى منتصف العمر بلا رجل .. بلا أطفال .. بلا مورد ..

إن الإنسان الغربى وحيد .. وحيد إلى حد مروّع ..

ولهذا حين دخل (أندرو) حياتها بنعومة كورقة صفصاف تسرى فوق مياه جدول ؛ لم يكن لديها مخرج آخر سوى أن تهيم به حبًا ، وكان هو رفيقًا لطيف المعشر .. وتزوجا .. ولأيام حسبت أنها لم تسقط من فوق مائدة القدر كما ظنت ..

لكن شيئًا ما طرأ على حياتهما ..

شيئًا لم يدر بخلدها من قبل ..

* * *

صاحت (سارة) فى دلال :

- « كفاك إثارة لرعبنا يا (أندرو) ! » .

ضحك (أندرو) حيث وقف بجوار المكتبة .. وقال فى إصرار :

- « إنها لقصص حقيقية يا صغيرتى .. أعنى أن هناك من يؤكد أنها تحدث ... » .

فى ريبة تساءل (جون) :

- « إذن أنت تأتى هنا لتلتذ باجترار هذه القصص وحيدًا جوار نيران المدفأة ؟ »

- « بالتأكيد .. أجلس أتأمل النيران .. وأتصور لو أن أحد هؤلاء الموتى الأحياء قد عاد الآن .. وهو يرفع يده الملوثة بالأوحال ليقرع بابى ! .. عندئذ ماذا سيحدث ؟ .. هل أصرخ ؟ .. هل أجن ؟ » .

- « هذا - لعمرى - مزاج مفرط فى (الماسوشية) يا صديقى إلى درجة أنه يحتاج دراسة ممحصة من محلل نفسانى .. »

- « لكننى أستمتع به حقًا .. » .

ثم إن (أندرو) تناول من المكتبة صندوقًا صغيرًا ..

صندوقًا من الخشب العتيق الذى تم تدعيم جوانبه برقائق مذهبة .. وقد أوصد برباط من الجلد المصفر المتآكل ..

عاد به إلى مائدة الطعام حيث جلس الثلاثة الآخرون ، ووضعه فى مركز المائدة ليراه الجميع ..

تساءلت (سارة) وهى تريح ذقنها على قبضتها :

– « ما هذا ؟ .. صندوق سجائر ؟ »

قال (أندرو) بنفس الابتسامة الغامضة :

– « لا أحد يضع السجائر فى المكتبة إلا إذا كان مخبولاً » ثم خلع عويناته وسلط نظراته النفاذة على الجالسين :

– « هذه عجيبة أخرى من عجائب هؤلاء (السلت) .. صندوق الآلام .. المعادل لصندوق (بندورا) الشهير .. »

– « بندورا) ؟ »

– « نعم .. فى الأساطير الإغريقية .. الصندوق المغلق الذى ظل يثير فضول حوّاء الأولى (بندورا) .. إلى أن صار الأمر أقوى منها .. فتحته .. فإذا بروح الألم والمجاعة والفقر والمرض تخرج منه لتجتاح العالم الخارجى .. »

– « وهذا الصندوق ؟ »

قال بصوت هامس :

– « هذا الصندوق انتقل من يد ليد .. آخر من امتلكه هو تاجر اسكتلندى عجوز .. قال لى وهو يحتضر : إن (شيطان الألم) حبيس فى هذا الصندوق .. ، الملاحظ أن كل من فتح هذا الصندوق مات وهو يتلوى ألمًا والدم ينزف من أنفه وفمه .. ، وكان التاجر آخرهم .. » وابتلع ريقه .. وبعد هنيهة أضاف :

– « التحدى هنا هو : نحن لا نؤمن بالخرافات .. وكلنا مثقفون متحضرون .. فهل نفتح الصندوق ؟! »

ساد الصمت الثقيل لدقائق ..

تبادل الجالسون النظرات ، ولم يقل أحد شيئًا ..

كان الصندوق جاثمًا بينهم كقنبلة تنتظر من يلمسها لتنفجر ، ولدهشة (جون) أحسّ أن حاجزًا مكهربًا يحيط بالصندوق ويحول دون فتحهم إياه .. كلمات (أندرو) صارت لها قوة حاجز سميك من الزجاج ... حاجز لا يمكن كسره ..

– « إذن .. أحاول فتحه أنا ! » .

قالها (أندرو) ومدّ يده إلى الصندوق ، وأزاح الرباط الجلدى المحيط به ..

* * *

لماذا تغيرت يا (أندرو) ؟

إن المرأة تفهم أن يكون الرجل وقحا .. أو عصبيًا أو وغدا .. أو أنانيًا .. أو بخيلا .. أو كاذبا ..

لكنها لا تفهم أن يصير غير مبال بها ..

يعود للدار صامتا .. يجلس أمام التليفزيون صامتا .. يأكل صامتا .. ينام صامتا .. بل ويتكلم صامتا إذا فهمت معنى هذا .. ، عيناه تتجاوزانها لتريا من خلالها .. بالنسبة له هي لوح زجاج .. والمرء لا ينظر للوح زجاج أبدا .. بل يخترقه ببصره إلى العالم الواسع وراءه ..

لقد وضع ذلك الحائط بينهما وصار من العسير أن يزول ..

وبرغم هذا لم تر منه كراهية ولا تقصيرا .. هو يؤدى واجباته كآلة تفعل ما يُطلب منها دون حبّ ولا مقت .. فقط تؤديه ..

وكان هذا يفوق قدرتها على التحمل .. ، كان يعود متأخرا دون تفسير .. ويسافر (لمقتضيات العمل) أسبوعا كل شهر .. ويعود لها حاملا هدية .. التعبير الرخيص عن عاطفة لا وجود لها ..

وأدركت أنه الملل ..

لقد قال زوجها الأول : إن روحها بليدة .. من يدرى !.. ربما كان محقًا فيما قال .. من العسير أن يكون زوجاها - بالصدفة البحتة - سريعى الملل ...

قرأت كثيرا من كتب الزواج ، وحاولت أن تبدو وتكون أفضل ، لكن الأمر كان أعمق وأخطر من بضعة مساحيق تضعها أو ثياب جديدة تبتاعها .. لقد كان هوائى التليفزيون يوما فى وضع حساس يسمح له بأن يكون على موجة الروحين معا .. أما الآن فقد حركته الريح ، ولم تعد أية عطور ولا ثياب قادرة على إعادته إلى سيرته الأولى ...

متى عرفت أنه يتردد كثيرا على هذا الكوخ ؟

لا تدرى بالضبط .. ربما كان ذلك حين عاد من السفر ووجدت عداد الكيلو مترات فى السيارة يشير إلى ذات بعد الكوخ مقسوما على اثنين .. وربما تلك الأوحال التى وجدتها على أحذيته عدة مرات كلما عاد .

خطر لها أن هناك امرأة أخرى ..

بالتأكيد هو كذلك لأن القصة دائما هكذا ..

ولكن من هى ؟ .. من هى ؟

★ ★ ★

كان الصندوق قد انفتح ..

ودون وجل امتدت يد (أندرو) داخله ..

وحين خرجت ؛ كانت مليئة بقطع (الشيكولاته) ..!

وتعالت صيحات المرح الضاحك .. وحتى (هيلين) لم تستطع منع الابتسامة التى ارتسمت على ركن ثغرها .. فالدعابة كانت موفقة حقًا .. وتم الإعداد لها بإتقان ..

تناول كل منهم قطعة من الشيكولاته راح فى استمتاع يلوكها .. وتساءل (جون) فى خبث :

- « شيكولاته (سلتية) من القرن الثانى عشر ؟ هل أنت مطمئن إلى تاريخ الصلاحية ؟! »

- « لا تنكر أننى خدعتهم جميعًا .. »

نهضت الزوجتان لتقوما بواجبهما الأنثوى من جمع الأطباق وخلافه ، أما (جون) فتمطى متثائبًا .. وأعلن أن وقت النوم قد حان فقد انتصف الليل ..

تقع حجرتا النوم بالطابق العلوى من الكوخ ، وإذ تمنى كل من الزوجين ليلة طيبة للزوج الآخر .. قال (أندرو) وهو يعاود الابتسام الخبيث :

- « حذار من أن يحلم أحدكم بالسلت ! »

- « أنا لا أخاف إلا حين أكون بكامل لياقتى .. أما وأنا مرهق فمستحيل .. » .



كان الصندوق قد انفتح ..
ودون وجل امتدت يد (أندرو) داخله ..

ودخل (جون) و(سارة) حجرتهما .. ودخل (أندرو) و(هيلين) حجرتهما .. كان هناك فراش مرتفع عن الأرض ذو أربعة أعمدة .. ومدفأة صغيرة فى ركن المكان .. ومرآة .. ومكتبة صغيرة .. ونافذة واربها (أندرو) قليلا حتى لا يختنقا وهما نائمان ..

وراح يشعل النار فى المدفأة ، على حين جلست (هيلين) على حافة الفراش تستبدل بثيابها ثياب النوم ... لاهثة من البرد انسلت تحت الغطاء السميك ؛ عالمة أن لحظات دامية ستمر قبل أن يدفأ الفراش وتدفأ قدماها .. أسنانها تصطك بردا ..

لكنها برغم الضوضاء الناجمة عن هذه الأسنان اللعينة ، كانت قادرة على سماع حركة (أندرو) فى الحجرة وهو ينزع ثيابه .. يرتدى منامته ، ثم ينسل تحت الغطاء جوارها .. صوت المنظار يوضع على المقعد جوار الفراش ..

ليلة أخرى تبدأ بالصمت وتنتهى به ...

سألته مغمضة العينين والغطاء يكتم صوتها إلى حد ما :

- « (أندى) ؟ » .

- « هم م م ؟ » .

- « لقد كنت تتردد على هذا الكوخ كثيرا .. أليس كذلك ؟ » .

- « وماذا يدعوك للاعتقاد بهذا ؟ » .

- « الشيكولاتة .. كانت بحالة جيدة .. لا يمكن أن يكون عام قد انقضى عليها هنا .. » .

اهتز الغطاء بضحكته المكتومة .. وتقلب ليوليها ظهره .. وبعد دقائق غمغم :

- « ملاحظة جيدة .. لكننى لم أضع أية شيكولاته فى هذا الصندوق ! .. إنها المرة الأولى التى أفتحه فيها .. ولم أرد أن أثير هلعكم .. ! » .

* * *

(ساره) و(جون) فى حجرتهما ...

يداعب (جون) شعيرات لحيته الشقراء (واضح إذن أنه يملك لحية شقراء) ويتأمل وجهه فى المرآة ..

فى الصباح عرفت (هيلين) فحوى المحادثة التى دارت بين الزوجين همسا على صوت وضوء نيران المدفأة ..

قالت (سارة) :

- « لا أدرى .. إن العلاقة بين (أندرو) و(هيلين) ليست على ما يرام .. »

- « هذا واضح .. لم يتبادلا كلمة منذ بدء الرحلة .. »
- « والسبب ؟ »
- « إن (أندرو) إنسان معقد يا (سارة) .. طفولته المليئة بالحرمان والمعاناة جعلت منه مخلوقًا صعب المعاشرة .. صحيح أنه صديقى لكنه كذلك لبضع ساعات كل يوم .. وأنا لا أتصور أن أكون زوجته ليوم واحد .. »

* * *

(هيلين) تعرف هذا عن زوجها ..

بعد عام من الزواج تعرف أنه مازال يحاول أن يكون مرعبًا ، لأن الرعب يهب المرء القدرة على التأثير فى الآخرين .. لأن الرعب هو القوة كما خيل له ..

إن (أندرو) لم ينضج بعد .. مازال طفلاً يكشر عن أنيابه فى وجوه الأطفال الأصغر منه .. ، صحيح أنه كان يبدو ناضجًا حينما يكون مع الآخرين .. لكنه ذلك القناع الاجتماعى الذى نرتديه أكثر اليوم وننزعه حين نعود إلى ديارنا ..

ولهذا فهمت ما يعنيه بـ (الرعب) حين تحدث عنه هذه الليلة .. ولهذا - حين حاول إفزاعهم - لم تر أمامها

سوى صبى سخيف يلوح بسحلية فى وجه طفلة مذعورة .. كلما صرخت كلما ازداد تلذذًا ..

ولأنه صبى سخيف ؛ لم يستطع بعد فهم الزواج .. الشىء الذى يرغم اثنين على تقاسم سقف واحد للأبد .. يأكلان نفس الطعام ويشاهدان ذات البرامج ويحلمان ذات الأحلام .. كأكثر الرجال حسب هذا شيئًا بهيجًا .. وظن أن هذا هو ما يرغب فيه حقيقة ، لكنه كان - كما قلنا - صبيًا سخيفًا لا يفهم كنه ما يريد .. وكان الزواج هو آخر ما يريد ......

ولكن .. هل حقًا توجد امرأة أخرى ؟

من العسير أن تجيب على هذا السؤال .. فهى قد بحثت بعين أنثى خبيرة عن آثار امرأة أخرى فلم تجد .. وهى تعرف أن إخفاء آثار كهذه شبه مستحيل .. دائمًا ما يكون هناك أثر ما .. مثل رائحة عطر أو قلم لأحمر الشفاه أو منديل أو علبة سجائر .. لكنها لم تجد شيئًا كهذا حين نهضت خلسة بعد ما نام (أندرو) .. وراحت تتفقد الحجرة بدقة ..

كان هناك كراسة على رف المكتبة .. فتحتها فى حرص لترى ما بها .. فوجدته بخط زوجها ..

العنوان يقول (الكلمات) ..

إسم غريب ! .. هل هو ديوان شعر ؟ قلبت الصفحة لترى ما بعدها فوجدت رسوما بدائية ساذجة تمثل رجالا يصرخون ، وقوارب ، ونيرانا ، وذئابا تعوى ..

وجدت تحت أحد الرسوم تاريخه (١٢/١٠/١٩٦٧) - الرؤيا الأولى - .. إذن هو يكذب بوضوح .. لقد جاء إلى هنا فى شهر أكتوبر - منذ شهرين - ورسم هذا .. بالتأكيد لم يأت بالكراسة معه .

فى صفحة تالية وجدت صورة فوتوغرافية (أبيض وأسود) لمستنقع كئيب المنظر .. بالتأكيد هو واحد من المستنقعات المجاورة ..

ماذا يقول التعليق ؟ (الظهور الخامس لإكلييوس) .. التاريخ هو ٦/٨/١٩٦٧ ...

إنها تذكر هذا التاريخ .. ألم يقل لها : إنه ذاهب إلى (لندن) لمقابلة بعض المقاولين ؟ استغرق هذا أسبوعا .. ولم يتصل بها هاتفيا ولو مرة واحدة لأنه كان هاهنا منهمكا فى دراسة (إكلييوس) هذا ..

ولكن من هو (إكلييوس) ؟

إن الصورة لا تظهر سوى مستنقع ..

ولكنها - إذ نظرت للصورة بعناية أكثر - رأت فى ركنها ظلاً مبهما لشيء ما .. تعرفون طبعا تلك الصور غير الواضحة بتاتا التى يظهر فيها ما يفترض أنه طبق طائر أو وحش (لوخ نس) أو رجل الثلوج ..

كل هذا يتم على ضوء اللهب المتراقص ...

الصفحة التالية ترى فيها صورة عصفور ميت فردت أجنحته وبدا فى حال مثير للشفقة ..

فى الصفحة التالية ترى عصفورا يلتقط الحب من وعاء صغير .. إنه ذات العصفور .. إذن هذه الصورة التقطت قبل موته ..

لكن العصفور الحى كان متسخا بالأوحال .. ، والتعليق تحت الصورة يقول : (بعد دفنه فى المستنقع بسبعة أيام) !.. يكفى هذا ..

لا مزيد من هذا الرعب قبل النوم ..

أغلقت الكراسة وعادت إلى الفراش مسرعة .. لكنها حين نظرت نحو (أندرو) وجدت عينيه مفتوحتين ...! كان يرمقها فى ثبات ...



٥ - عن (إكليبوس) ..

شىء ما يتحرك هناك بين ضباب المستنقعات قادما نحونا ...

★ ★ ★

كان هذا هو اليوم الأول فى المفكرة ، وهو يوم طويل حقا كتبته (هيلين) فى أربع صفحات كاملة .. فالمفكرة لم تكن من الطراز المقسم إلى تواريخ ..

على أن اليوم الثانى والثالث كانا أكثر مرحا ..

فقد خرجت المجموعة للسير على الجليد وتفقدوا المكان .. وتعاون الرجلان على اقتطاع شجيرة شربين صغيرة لتكون هى شجرة (الكريسماس) ، ووضعاها بجوار المدفأة .. ثم تعاونت المرأتان على تزيينها بالأجراس والدمى الصغيرة والورق المفضض اللامع ..

ولم يفت (سارة) أن تأتى من حقيبتها بدمية (بابا نويل) - أو (سانتا كلوز) - بلحيته البيضاء وقلنسوته الحمراء ، وتضعها فى ركن مهم من قاعة المعيشة ..

بعد هذا راحوا يلعبون الورق .. إن لعبة الـ (جاك) ممتعة حقا .. ويقال : إن المرء يمكن أن يلعبها للأبد لو عاش فى سجن دائم مع آخرين .

لم تحاول (هيلين) أن تسأل زوجها عما رآه البارحة .. ولا عن كنه (الكلمات) ، فقط انسحبت بضع دقائق لتصعد إلى غرفة النوم لتدون مذكرات اليوم السابق .. ومن المؤكد هنا أن زوجها لا يعرف عن هذه الهواية الشىء الكثير ؛ وإلا ما استطاعت أن تتكلم عنه بهذه الحرية المطلقة ..

من جديد شعرت بأناملها تدغدغها كى تتصفح (الكلمات) مرة أخرى ..

بيد مرتجفة تناولت الكراسة من فوق رف المكتبة ، وعادت تقلب صفحاتها الملأى بالغموض ..

فكان أن وجدت هذه العبارات :

مجموعة النداء الأولى :

أرتميس - كاسيس - هرملاكايوس . ثم بيركادوس (٤) .

« مجموعة النداء الثانية :

أشيوست ديمترا - إرسادوك

(فى وجه القمر)

ثم ...

إينياس (تعمل وحدها دون معين) »

بعد هذا جاء التحذير من الجهر بهذه العبارات كما ذكرت آنفا للقارئ ....

لم تفهم كنه هذا الكلام ، وإن أدركت يقينًا أنه تعويذة تتعلق بقوة ما من وراء الواقع .. وشعرت بتلك الرجفة تزحف من جذور شعرها حتى أسفل عنقها ...

ما الذى يفكر فيه (أندرو) ؟ .. من هو حقًا ؟ ..

لا تعرف السبب .. لكنها شرعت تنقل هذه العبارات إلى باطن غلاف مفكرتها .. كانت تأمل أنها ستعرضها على من يفهم فى هذه الأمور عند عودتهم .. خبير فى السحر .. أو خبير فى (السلت) .. أو خبير فى شمال (أسكتلندا) .. أو خبير مستنقعات .. لا تدرى بالضبط .

* * *

مرّ اليوم الخامس والعشرون بسلام .. ومثله مر اليوم السادس والعشرون ...

على أن لنا وقفة معينة مع اليوم السابع والعشرين .

كلا .. لا تتحفزوا يا إخوان .. لم يحدث ما يدعو للرعب .. إن هى إلا ملاحظة بسيطة ..

لقد صحا (جون) فجر أمس متوترًا ، وأيقظ (سارة) مؤكدًا أنه سمع من يطرق باب الكوخ ...

ولما لم يكن هناك بالمنطقة سواهم .. ولم يخلق بعد ذلك المخبول الذى يجرؤ على خوض منطقة المستنقعات وحيدًا فى الظلام .. بدا الأمر غريبًا ..

بعد ثوان سمعت (سارة) ذات الطرقات اللحوح .. وهى تقسم إنها كانت من شخص يستعمل مجمع قبضته فى توجيه ضربات حانقة حاقدة إلى الباب ..

وتأهب (جون) للنزول ليرى ماذا هنالك .. لكن (سارة) توسلت إليه أن يتجاهل الأمر ويعود للنوم .. ولم تكن بحاجة لإلحاح كثير .. لأن (جون) كان من الحكمة بحيث ارتخت قدماه تحته ولم يعد قادرًا على إجبارهما على حمله ..

قال لها وهو يعود للنوم :

ـ « فلنفترض أننا لم نسمع شيئًا .. »

ـ « يبدو أن (أندرو) لم يسمعه .. »

ـ « أراهن على أنه فعل .. لكنه يتظاهر بالصمم مثلنا .. »

ـ « ولو كان هذا عابر سبيل يوشك على التجمد ؟ »

ـ « إذن فليتوله الله بعنايته حتى تشرق الشمس ..! »

ـ « قد يكون ضل الطريق ... »

قال (جون) وهو يتثاءب :

ـ « لا أحب أن أجازف بفتح الباب ظنًا أنه عابر سبيل ثم يتضح أنه ليس كذلك ! .. هل تذكرين ، تعنيه



وتأهب (جون) للنزول ليرى ماذا هنالك .. لكن (سارة)
توسلت إليه أن يتجاهل الأمر ويعود للنوم ..

الطرقات على الباب فى قصة (و . يعقوب) الشهيرة (مخلب القرد) ؟! »

ـ « لـ .. لا .. لم أقرأها .. » .

ـ « إذن .. أنصحك بقراءتها نهارًا ! »(*)

وعاد يواصل النوم ...

فى الصباح أخبر (أندرو) بما حدث .. فبدا على هذا الاهتمام ، وخرج يتفحص الباب الخارجى .. ثم إنه نادى (جون) ...

وفى اهتمام أشار إلى آثار وحل على الخشب .. وتبادل وصاحبه نظرة .. نظرة لم يدر (جون) معناها ..

قال فى جدية :

ـ « أحسنت ببقائك فى الفراش .. فقد كان أحدهم ! »

ـ « أحد من ؟ »

ـ « العائديـن ! .. إنهم يأتون عند الفجر من حين لآخر طالبين المأوى .... »

فى حنق مذعور صاح (جون) :

ـ « (أندرو) ! .. هلا كففت عن هذا الهراء ؟ »

(*) قصة رعب خالدة ، سلبت الكثيرين القدرة على النوم فى أوائل هذا القرن .

ابتسم (أندرو) فى غموض .. وغمغم :

ـ « أنت حر فى تصديقه أو عدم تصديقه .. فنحن فى بلد ديموقراطى يا صديقى .. »

ولقد انتهت القصة عند هذا الحد ..

ألم أقل لكم : إنها مجرد ملاحظة بسيطة قد لا يكون ثمة داع إلى ذكرها ؟!

★ ★ ★

ويمر اليومان التاليان دون أحداث جديرة بالذكر ..

وفى اليوم الثلاثين من (ديسمبر) وقف (جون) و(أندرو) أمام المكتبة وقد أمسك كل منهما قدحا من القهوة يرشف ما به فى استمتاع ....

على كعوب الكتب يمرر (جون) طرف سبابته ، وهو يتلو أسماءها بصوت عال .. ثم توقف عند المجلد العتيق متآكل الأطراف .. وتساءل :

ـ « ما هو (إكليبوس) يا (أندرو) ؟ .. هل هى أشعار رعوية أو شىء من هذا القبيل ؟ » .

أخرج (أندرو) المجلد من المكتبة .. كان مغطى بالغبار السميك مما يدل على قلة استعمال حقيقية ..

فتحه .. ورأى (جون) أوراقا مصفرة مهترئة متآكلة عليها رسوم تمثل شياطين .. شياطين القرون

الوسطى بالذات هزيلة البدن بلحاها المدببة ووجوهها التيسية .. إن إرتباط الشيطان بالماعز كان عميقا فى وجدان رسامى القرون الوسطى ..

كانت هناك رسوم لساعات .. وأبراج سماوية تخرج منها صواعق .. وأشخاص يحترقون فى النار بسعادة بالغة .. وأشياء لا تدرى كنهها تفعل أمورا لا تدرى ما هى ....

الخلاصة أن هذا ـ دون شك ـ كتاب سحر من القرون الوسطى .. وليس ـ بالتأكيد ـ جديرا بوضعه فى المكتبة .. إن مكانه الطبيعى هو متحف التاريخ البريطانى .

رفع (جون) عينا متسائلة غير فاهمة نحو (أندرو) ..

قال (أندرو) وهو يشير إلى رسوم الكتاب :

ـ « (إكليبوس) هو كيان شيطانى من خرافات القرن الثانى عشر الميلادى ، ويقال : إن الإيمان به كان يبلغ مرتبة الدين فى هذه الأصقاع .. ولا داعى للقول بأنه كان يسيطر على هذه المستنقعات التى نعيش فيها بالذات .. وكان القوم هاهنا يقدمون له القرابين الآدمية التى يغمرونها فى المستنقعات ، ثم ينادون هذا

الـ (إكليبوس) عن طريق عبارات سحرية معينة ..
وكان الافتراس يتم .. وبعده يكتسب ذوو الضحايا قوى غير محدودة .. طبعًا هى واحدة من الخرافات العديدة غير المتناهية التى تحاصر هذه المنطقة » .

تساءل (جون) وهو يعيد الكتاب إلى موضعه :

- « (أندرو) ؟ »

- « هم م م ؟ »

- « من أين تجيء بكل هذا ؟ »

ضحك (أندرو) مراوغا :

- « إنها هوايتى يا (جون) .. لا أترك تاجر كتب قديمة .. ولا مزادًا يبيع صناديق موصدة .. ولا نصابًا يزعم أن لديه مخطوطات قديمة إلا وذهبت إليه وأنفقت نصف راتبى على ما عنده .. » .

- « وهل رأيت هذا الـ .. الشيطان الافتراضى ؟ »

- « بالطبع لا .. وإلا ما كنت هنا أثرثر .. إن اقتناء كتاب عن العنقاء لا يعنى دائمًا أنك تؤمن بوجودها .. » .

* * *

كان هذا هو ما دار بين الصديقين ، وفيما بعد عرضت (هيلين) ما قيل .. وأدركت أن (أندرو) يكذب .. حتمًا يكذب .. ألم تقرأ فى مذكراته أو (كلماته)

عبارة (الظهور الخامس لإكليبوس) ؟ .. وتعرف أن هذا تم يوم ١٩٦٧/٨/٦ .. ؟

ولكن لماذا يكذب فى هذا بالذات برغم أنه يسره بالتأكيد أن يستغل هذه النقطة لإثارة مزيد من رعب مرافقيه ؟

إنها لن تفهم (أندرو) أبدًا .. بالتأكيد هو يزداد غموضًا يومًا بعد يوم .. والجديد هنا هو أنها لم تعد تميل إليه على الإطلاق .. بل هى فى الواقع تمقته وتخشاه بشدة ...

لكن ليس الوقت مواتمًا لإظهار هذه العواطف الخاصة أمام ضيفيها ....

* * *

وحينما صحت من النوم فى الواحدة صباحًا ؛ عرفت أنها لن تجده جوارها فى الفراش .. كيف عرفت ؟ ..

هذا سهل .. كل النساء يجدن هذه الفنون التى تندرج تحت الحاسة السادسة والسابعة والثامنة ..

وعلى ضوء اللهب المتراقص فى المدفأة ؛ رأت مكانه فى الفراش خاويًا ..

أين ذهب ؟ .. هل لقضاء حاجة ؟ .. تدخلت حاستها التاسعة كى تنفى هذا .. إذن أين هو ؟ .. أحقًا لا تعلمين يا حمقاء ؟ .. بالتأكيد هو الآن فى المستنقعات ...!

* * *

٦ - مصيدة عيد الميلاد ..

شىء ما يتحرك هناك بين ضباب المستنقعات قادما نحونا .. بعد ما انتظر قرونا ...

★ ★ ★

اليوم هو عيد الميلاد ..

حين ينتصف الليل يلفظ عام ١٩٦٧ أنفاسه الأخيرة ، على حين تدوى صيحات ١٩٦٨ فى غرفة الأطفال بمستشفى الأبدية .. صارت شجرة عيد الميلاد فى أبهى صورة ، وأضافت (سارة) بعض تماثيل صغيرة لتعطى انطباع المزود حيث ولد المسيح عليه السلام ..

وعلى مقعد خشبى ينذر بالانهيار يقف (أندرو) عاكفا على تثبيت بعض المسامير ليعلق فوقها خيطا .. ، وبالطبع تتدلى الزينات من هذا الخيط ...

الكل يعمل .. الكل يشارك .. الكل مرح ..

ماعدا - تعرفون من - (سندريللا) الرفيقة الحزينة المتشككة الشهيرة بـ (هيلين) ...

تجلس فى الركن جوار المدفأة تتأمل أظفار يديها فى شرود ..

★ ★ ★

(جون) فى المخزن وحيدا :

يمسك البلطة ويهوى بها فوق قطع الخشب الموضوعة فوق جذع عال متين .. رياضة مرهقة لكنها جيدة .. إنها خير وسيلة لجلب الدفء فى هذا الزمهرير .. لهذا يتمتع الحطابون بصحة هائلة ..

هان ! .. تم تحويل قطعة الخشب هذه إلى قطع صغيرة ...

والآن يحملها ليضعها فى الركن .. يأتى بقطعة أخرى ..

غريب هذا الشريط الجلدى الذى يبرز وراء الأخشاب .. متى رآه من قبل ؟ ..

مد يده وجذبه إليه فوجده متعلقا بشىء ما .. بصعوبة نجح فى تحريره .. وجد أنه يد حقيبة .. حقيبة أنثوية ..

تناولها بشىء من حذر وعالج قفلها .. وجد بداخلها بعض أوراق مالية .. وبطاقة هوية .. ماذا تحويه هذه البطاقة ؟ ..

فتاة تدعى (ساندرا بيكيت) .. المهنة سكرتيرة - من (جلاسجو) - وهى فى السادسة والعشرين من عمرها ..



وخير ما يفعله الآن هو أن يتجاهل الأمر كلية .. فليُعد الحقيبة إلى مكانها .. وليبتلع أسئلته العديدة ..

ابتسم فى خبث .. إن وجود هذه الحقيبة هنا يعنى أن هذا الكوخ لم يكن ديراً يعتزل فيه (أندرو) العالم .. وخير ما يفعله الآن هو أن يتجاهل الأمر كلية ..

فليعد الحقيبة إلى مكانها .. وليبتلع أسئلته العديدة .. وليكن حكيمًا بالقدر الذى يسمح بإخفاء هذه البسمة العارفة من على شفتيه ..

وكحطاب محترف بصق على كفيه .. وتناول البلطة وعاد يواصل عمله ..

★ ★ ★

عند الظهيرة كانت (هيلين) قد وصلت إلى قرارها .

- « أريد العودة إلى دارى ! »

أثارت جملتها جواً من الوجوم والدهشة .. حتى إن (سارة) كفت عن تزيين شجرة عيد الميلاد .. و(جون) توقف عن رمى الأخشاب فى المدفأة واستدار نحوها وهو مازال جاثيًا على ركبتيه ..

أما (أندرو) فتصلب والمطرقة فى يده ، وثلاثة مسامير بعد بين أسنانه .. وانبعثت من عينيه نظرة نارية :

- « (هيلين) ! .. هل تمزحين ؟ »

نهضت فى حنق ، وركلت الأرض بقدمها كطفلة غضبى .

ـ « أنا لا أمزح .. أريد العودة لدارى »

هبط من فوق المقعد .. ولفظ المسامير .. ثم نظر لها بحدة :

ـ « ما هذا السخف ؟ .. وفى ليلة الكريسماس التى جئنا خصيصًا من أجلها ؟! »

وضعت (سارة) ذراعها برفق حول كتف صديقتها ، كأنها تقول (دعونا .. فنحن النسوة يفهم بعضنا بعضا) وسألتها بحنان :

ـ « هل ثمة ما ضايقك هنا يا حبيبتى ؟ » .

ـ « أريد أن أرحل وكفى ... » .

دنا منها (جون) بدوره ليقول شيئًا ما .. ولقد فاق هذا كل قدرة إضافية على التحمل .. فها هى ذى تلعب دور الطفلة العنيدة التى يحاول الجميع إقناعها بالود تارة .. وبالغلظة تارة ..

وهنا لم تتحمل أكثر .. انفجرت فى البكاء كالصنبور المكسور .. إنها تشعر بالخجل من بلاهتها .. جرت ودفنت وجهها بين راحتيها بينما (سارة) مازالت تلعب دور (قاهمة النساء) و(جون) يكور قبضته فى وجه (أندرو) مازحًا :

ـ « هل أثار حفيظتك ؟ .. سألقنه درسا قاسيًا » .

أخيرًا تستجمع قدرتها على الكلام .. فتقول والعبرات تشوه كل ما تقول :

ـ « الأمر هو أننى لا أحب هذا الكوخ .. الشؤم يحيط به .. كل شىء غاررييبب هى ى ى ! » .

يتساءل (جون) فى حيرة :

ـ « ماذا تقول ؟ » .

تقول (سارة) موضحة :

ـ « تقول : إن كل شىء غريب .. »

وتعود (هيلين) للكلام :

ـ « أشعر أن كارثة ستحل بنا هنا .. أنا من ذلك واثقة ..

إننى أرتجف هلعًا من كل جدار هنا .. وكل باب .. »

وتهاتفت من جديد :

ـ « أريد العودة إلى دارى ى ى ى ! » .

نافد الصبر أوقفها (أندرو) بيده .. ودس يده الأخرى فى جيبه .. وغمغم :

ـ « حسن .. تريدين هذا .. لك هذا .. » .

صاح (جون) غير مصدق :

- « (أندرو) ! .. عم تتكلم ؟ .. إن العطلة لم تبدأ بعد .. ثم إننا غير مستعدين لقضاء العيد في ديارنا .. » .

- « أعرف هذا .. »

وأردف وهو يضع قلنسوته المعلقة على المشجب فوق رأسه :

- « هى لا تريد الكوخ .. ليكن .. سأعود بها للدار .. ثم أرجع لكم .. هذا لن يستغرق وقتًا كثيرًا .. سأكون هاهنا قبل منتصف الليل .. وسأحضر المزيد من الشراب والأطعمة ..

هتفت (هيلين) :

- « لكنى أرغب فى أن نعود جميعًا .. معًا ! » .

- « أنت حرة يا (هيلين) فى البقاء أو العودة .. لكنك لست حرة فى إفساد النزهة على ضيفينا .. وأعتقد أننا جميعًا راغبون فى البقاء .. » .

هنا بدورها هتفت (سارة) :

- « لن يكون للبقاء هنا طعم دون (هيلين) .. إننى أفضل أن نرحل جميعًا .. »

قال (جون) فى ضيق :

- « ربما كان (أندرو) على حق .. إن الرحلة شاقة .. وقد فرغنا بصعوبة من إعداد هذا الكوخ .. » .

وهكذا ....

تقرر أن ترحل (هيلين) وزوجها ، على أن يعود هذا الأخير سريعًا لبدء الحفل .. كان الضيق يملأ الوجوه وبدا أن التهذيب هو الشىء الوحيد الذى يمنعهم من توجيه السباب إلى هذه (المصيبة) المسماة (هيلين) ، والقادرة على إفساد كرنفال كامل من كرنفالات (أمريكا الجنوبية) بكل هذا الذعر الهستيرى .

وفى أسى وقف (جون) و(سارة) يرمقان السيارة وهى تتحرك ببطء فوق الثلوج .. بداخلها (أندرو) خلف عجلة القيادة و(هيلين) جواره ترمق الجليد خارج النافذة ، ولا تنبس ببنت شفة ..

رفع (أندرو) ذراعه مودعًا .. فصاح (جون) :

- « الليلة يا (أندى) ! »

- « الليلة .. »

- « لا تتأخر كثيرًا .. وابق حيًا .. وإلا متنا متجمدين هنا ! »

- « ادع الله أن أتذكركم .. »

وغابت السيارة وراء منحدر الثلوج ..

* * *


كانت أخشاب الجسر مهشمة في مواضع عديدة ..

ومن بعيد يتبدى الجسر لهما ..

جذب (أندرو) ذراع السرعات ، فأوقف السيارة ..

ثم فتح الباب .. وترجل ليتفقد الجسر كدأبه ..

دنا منه .. وانحنى يتفحص الأخشاب ..

بعد هنيهة رأته (هيلين) يعود إلى السيارة ، ونظرة جادة ترتسم خلف عويناته المنهكة ..

قال لها دون أن ينظر إليها :

- « (هيلين) .. أريد منك أن ترى هذا معى .. »

نزلت من السيارة .. ومشت وراءه بحذر فوق الجليد .. بخار الماء يخرج من فيها كبالونات الكلام فى القصص المصورة .. وكانت تلهث ..

أخيرًا ترى ما كان يعنيه ...

كانت أخشاب الجسر مهشمة فى مواضع عديدة .. بعضها لم يعد له وجود .. وبعضها تدلى ما بقى منه متعلقًا بجانب الجسر الفولاذى ...

نظرت له غير قادرة على استيعاب ما يعنيه هذا :

- « من فعل ذلك ؟ »

- « بالتأكيد ليست أمى العجوز .. »

- « ولـ .. لكن .. هذا يعنى ...... »

قال وهو ينهض من على ركبتيه :

- « نعم .. يعنى أننا صرنا سجينى هذا الكوخ ..! »

كانت عبارته الأخيرة مكتوبة فى بالون كبير يوشك على الرحيل إلى بعيد .. إلى الغيوم ......

* * *

٧ - وكانت البداية ..

شىء ما يتحرك هناك بين ضباب المستنقعات قادمًا نحونا .. بعد ما انتظر قرونا .. إننى لا أرى وجهه ....

* * *

لنا الآن أن نتخيل الموقف كالآتى :

(هيلين) صعدت وثبًا إلى غرفتها دون أن تنطق كلمة واحدة ، حيث ارتمت على الفراش بثيابها .. منبطحة على بطنها ، راحت تدون كل الأحداث الأخيرة فى مفكرتها التى هى بين أصابعى الآن .. بخط عجول يفتقر للنظام ..

وياله من خط .. !..

كل حرف فيه يضج بالهستيريا والهلع وخشية الغد .

(أندرو) فى الطابق الأسفل يجلس على الأرض أمام المدفأة محاولاً شرح ما حدث للزوجين غير الفاهمين ..

فى غباء يصغى (جون) و(سارة) لخلاصة الموقف .. لقد تهدم الجسر - صلتهم الوحيدة بالعالم الخارجى - والفاعل مجهول .. لكنه - حتمًا - ليس الريح ولا الذئاب ..

- « ومن يفعل شيئاً كهذا ؟ »
- « لا أدرى ... » .
- « ظننت المنطقة معزولة حقا .. »
- « هى كذلك للأسف .. »
- « والحل ؟.. لن نموت جوعاً هنا بهذه البساطة »
- « موت ؟ »

هتف (أندرو) بهذه الكلمة فى شىء من الاستخفاف .. ثم ضحك ضحكة عصبية :

- « من تحدث عن الموت ؟ .. كل ما علينا هو عبور المستنقعات راجلين .. وسنجد القرية فى الجانب الآخر ! » .

نظر له (جون) فى غباء :

- « قلت : إن المستنقعات خطرة .. »
- « لمن يجهلها نعم .. أما أنا فأعرف كل شبر فيها .. ولن نحتاج إلا إلى أربع ساعات أوست .. » .

تأمل (جون) النار المتراقصة شارد الذهن لبضع دقائق .. ثم قال وهو يشعل لفافة تبغ برغم كونه غير مدخن :

- « هذا لا يروق لى يا (أندى) .. أرى أن الحكمة تقضى بأن يحاول أحدنا - أو جميعنا - عبور الجسر

على الأقدام .. ربما كان هذا عسيراً .. لكنه ليس مستحيلاً مع استعمال الحبال .. وحين نصل إلى الجانب الآخر نقطع مسافة طويلة - لكنها آمنة - حتى نصل إلى مكان مأهول .. » .

- « سخف ! » - قال (أندرو) محنقاً - « لماذا نلجأ إلى المخاطرة مادام لدينا حل سهل تنعدم فيه درجة المخاطرة إلى صفر ؟ .. ثق بأننى أعرف ما أقول .. »

هنا تدخلت (سارة) :

- « على كل حال .. نحن لن نقدم على شىء الآن .. لن نتحرك إلا فى ضوء النهار .. فلماذا لا نترك النقاش الآن ونحتفل معاً بالكريسماس كما أزمعنا ؟ »
- « يا له من احتفال ! » .

الواقع أن عقدة عتيقة بدأت تتحرك فى نفس (جون) كى تسلبه الراحة واطمئنان البال .. عقدة الحصار .. وهى نوع من أنواع عقدة الأماكن المغلقة التى - كالعادة - يسميها الأطباء النفسيون اسماً لاتينياً متحذلقاً (كلوستروفوبيا) .. لهذا - يمكننا الفهم - لم يكن (جون) يشعر بأى نوع من الارتياح وإن لم يصرح بهذا ...

* * *

الآن يبدأ الاحتفال ...

غريب هو الإنسان .. برغم هذا الجو الثقيل من الخطر الجاثم على الأنفاس ؛ فإن النسيان بدأ يعابث النفوس .. وشيئًا فشيئًا بدأ جو من المرح ...

كانت (هيلين) جالسة معهم ؛ فقد صعدت لها (سارة) وأصرت على أن تشاركهم الاحتفال ...

وجلست هذه الأولى واجمة ساهمة كأنها تشارك فى مأتم صديق عزيز ...

إلا أنها بدأت تبتسم أحيانًا .. ثم تبتسم كثيرًا .. فتضحك .. فتقهقه ..

وبدأ الغناء الجماعى بطيئًا مترددًا .. ثم ازداد علوًا.. وازداد مرحًا .. ، وتدخلت الكئوس التى جرعوها لتجعل كل ملحوظة سخيفة تبدو مضحكة جدًا إلى حد ذرف الدموع من العيون .

ودق (جون) على المائدة ليصاحب الإيقاع .. والواقع أنهم قد عملوا كل ما بوسعهم كى ينسوا عزلتهم الرهيبة .. والمستنقعات الجاثمة ككابوس ثقيل على بعد أمتار من مجلسهم هذا ..

وفى منتصف الليل لثم كل زوج زوجته وتمنى لها عامًا جديدًا سعيدًا .. صادقًا أو غير صادق ..

وهنا نهض (أندرو) ليقف كأنما يؤدى دورًا فى مسرحية ، وصاح بلسان ملتو قليلا :

- « والآن .. فلنؤد التحية له .. »

- « التحية لمن ؟ »

نظر للسقف .. وهتف :

- « لسيد هذه المستنقعات .. الذى نحن فى ضيافته الآن .. والذى ينتظر طوال الوقت .. »

ودون سابق إنذار راح يهتف بصوت جهورى :

- « أرتميس - كاسيس - هرملاكايوس - بيركادوس بيركادوس - بيركادوس - بيركادوس ! » .

تبادل (جون) وزوجته نظرة ساخرة .. ما الذى يقوله هذا الأحمق ؟ وانفجرا يضحكان ..

- « (أندى) ياعزيزى .. هل أصابك الخبال أخيرًا ؟ أم تقمصتك روح عراف إغريقى ؟ »

لكن (هيلين) - التى لا يخفى عليك أنها قد أفرطت فى الشراب - لم تحب كثيرًا ما تسمع .. وبدا لها مألوفًا إلى حدٍ ما ..

هنا كان (أندرو) مازال يردد :

- « أشيوست ديمترا - إرسادوك » ..

قالها وهو يدور بجذعه فى الاتجاه الذى يفترض أن القمر بازغ فيه ..

صاحت (هيلين) واهنة الأعصاب :

ـ « اسـ .. اسمعوه .. إنه يـ .. يناديه .. » .

ـ « ينادى من ؟ » .

لم تستطع مواصلة الكلام ، وراحت تضحك تلك الضحكة السخيفة الثملة .. ثم توسدت ذراعيها وغرقت فى نعاس طويل عميق ..

على حين واصل (أندرو) الكلام :

ـ « إينياس !.. » .

وقف لحظة يتشمم الهواء .. ثم جلس منهكا كأنما فرغ من جهد طويل مضن .. وبيد مرتجفة جرع بعض الشراب ..

بعد ثانية تعالى صوت التصفيق من كفى الزوجين ..

وابتسم (جون) قائلاً فى مرح :

ـ « لقد راق لى كل هذا .. هل هو جزء من مسرحية لـ (سوفوكليس) ؟ » .

ـ « لم تكن هذه لغة يونانية .. » .

ـ « إذن ما هى ؟ » .

ـ « لا أدرى .. ربما هى لغة (السلت) القديمة .. »

ـ « وماذا تعنى ؟ »

ـ « ربما هى نوع من التحية لسيد المستنقع .. إنها تضفى إثارة غامضة على الجو .. ألا ترى هذا معى ؟ »

ـ « .... ! » .

وهنا تصلبت (سارة) واتسعت عيناها ..

إن النساء ـ بطبعهن ـ قائلات قصص محترفات ، وهن بهذه الحركات الهستيرية المفاجئة من نوع (أنصت !) يجدن تشتيت أية محادثة مهما كانت أهميتها ..

ماذا سمعت إذن يا أخت (سارة) ؟

ـ « خيل إلىّ أننى سمعت صوتا من ناحية المستنقعات ! »

ـ « هذا محض خيال .. »

ـ « عجبا !.. أوشكت أن أقسم على هذا .. »

* * *

حينما تثاءب الجميع بدا واضحا أن نهاية الأمسية قد جاءت ..

وكان على (أندرو) أن يحمل زوجته حملا إلى الفراش فى الطابق الثانى ، لأن المسكينة بدت كأنما لا توجد عظمة واحدة متصلة مع أخرى فى جسدها ..

قبل أن يغلق باب الغرفة تمنى للزوجين (ستوكلى) ليلة هادئة ، وعامًا جديدًا سعيدًا ..

★ ★ ★

- غرق (جون) فى نعاس عميق جوار (سارة) ..

لكن - كما نتوقع - ظل ذلك الجزء الذى لا يهمد ولا ينام فى عقله يعمل طوال الوقت ..

كان هذا الشىء يحلل ويفند ويستخلص النتائج ..

(إكليبوس) - التعويذة - الصندوق - قرعات على الباب - الجسد المحطم - المستنقعات - هناك من دخل الكوخ .

ثم الحقيبة فى المخزن .. وفتاة اسمها (ساندرا) ..

لكن لحظة .. الفتاة لا تترك حقيبتها أبدًا للذكرى وبها بطاقة هويتها .. كيف لم يخطر له هذا ؟ .. أى غباء ؟..

لا تترك الفتاة حقيبتها أبدًا إلا للص حقائب .. أو فرارًا من خطر داهم ..

وبالطبع ..

تترك الفتاة حقيبتها فى المكان الذى تموت فيه !..

....

★ ★ ★

٨ - لعبة الأهوال ..

شىء ما يتحرك هناك بين ضباب المستنقعات قادمًا نحونا .. بعد ما انتظر قرونًا .. إننى لا أرى وجهه .. ولا أتمنى أن أراه ..

★ ★ ★

وحينما نزل (جور) إلى الطابق السفلى فى الصباح ؛ وجد أن (هيلين) هناك .. كانت قد استيقظت مبكرًا وجلست تدون بعض الكلمات فى مفكرتها ..

أثار دهشته أنها أفاقت بهذه السهولة من إعياء الأمس .

كما أثار دهشته أنه فعل نفس الشىء .. ، وتأمل وجهها ..

كان شعرها منتثرًا والإرهاق محفورًا على ملامحها .. وثمة انتفاخان تحت عينيها ..

- « أين (أندرو) ؟.. أ .. صباح الخير أولاً »

- « صباح الخير .. مازال غافيًا ..»

- « (سارة) كذلك .. »

كان أمامها وعاء كبير يتصاعد البخار منه وقدح .. ولم يكن فى حاجة لسؤالها عما يحويه الوعاء .. فالقهوة تنادى من يطلبونها دون كلمات .. وهو كان يعرف أنها الأمل الوحيد له فى البقاء حيًا مع كل هذا الصداع .. مدّ يده وصبّ بعضها لنفسه وجرع جرعات متلاحقة ..

كانت (هيلين) تمسك القلم بيدها اليمنى ، بينما لفافة التبغ تلفظ آخر أنفاسها فى يدها اليسرى ، وقد أوشكت أن تحرق أصابعها .. وتناثر الرماد على المنضدة وفوق ثياب (هيلين) .. فمدّ يده وانتزعها ورماها بعيدًا ..

تبادلا النظرات دون كلمات لدقائق .. لكنه لم يفهم قط ما تعنيه بهذه النظرات .. ماذا تريد قوله ؟..

بعد هنيهة غمغمت ..

- « (جون) .. أنا خائفة ! »
- « أنا كذلك .. »

ثم أردف وهو يرمقها فى ثبات ..

- « إن زوجك ليس على ما يُرام .. »
- « هذا هو بيت القصيد .. »

وفى اللحظات التالية تبادل الاثنان خبراتهما .. حكى

لها عن كتاب (إكليبوس) وعن (ساندرا) والطرقات الليلية ..

وحكت له عن كتاب (الكلمات) والخروج الليلى غير المبرر لـ (أندرو) .. والشيكولاتة التى يزعم أنه وجدها خطأ ..

وعن .. وعن ..

بعد دقائق سألها (جون) وهو يصبّ المزيد من القهوة :

- « ما الذى نستخلصه من كل هذا ؟ »
- « لا أدرى .. »
- إن زوجك - أكررها - ليس على ما يُرام .. إما أنه يعبث بنا بغرض إثارة الرعب السادىّ الأبله فى نفوسنا (وأنا أعترف أنه نجح فى ذلك كثيرًا) .. وإما هو فعلاً يستخدمنا فى إحياء تعويذة سحرية عتيقة !
- « ولماذا الآن بالذات ؟ »
- « من يدرى ؟ كان هناك من سبقنا إلى هذا فى هذا الكوخ بالتأكيد .. هل نسيت (ساندرا) ؟ (ساندرا) هذه إما حية ترزق الآن (لكنها ترتجف هلعًا) .. وإما هى ميتة .. ميتة .. وهذه المستنقعات تسمح بكل شىء .. » .

حاولت سد فمه بيدها كى لا يتكلم أكثر ..

- « (جون) .. رحماك لا تثر هلعى .. »

- « إن ما أعنيه من كل هذا هو أننا يجب أن نعود إلى ديارنا .. الآن .. وبالتأكيد عن طريق الجسر .. سيكون هذا عسيرًا لكنه ليس مستحيلا .. »

- « لن يقبل (أندرو) .. »

- « يجب أن يفعل .. وإلا فنحن ثلاثة ضد واحد ..» إذا كان يحب المستنقعات فليقطعها وحيدًا ..

ونهض فى حماس ..

- « سأصعد لأستعد أنا و (سارة) .. وعليك أن تستعدى أنت بدورك .. سنترك متاعنا هنا فلن نأخذ معنا سوى الحبال .. ومحراكى النار الخاصين بالمدفأة .. »

- « ليكن .. »

* * *

والتقيا فى الطابق الثانى وقد غادر كل منهما حجرته ملهوفًا مذعورًا .. فما إن رأى الآخر حتى صاح :

- « (سارة) ليست فى الفراش ! »

- « و (أندرو) ليس فى الفراش ! »

- « هل فتشت المكان جيدًا ؟ »

- « لا توجد مخابئ كثيرة فيما أظن .. »

لكنهما راحا يفتشان جيدًا .. تفقدا كل ركن وكل موضع فى الكوخ وفتحا المخزن وكل باب موصد .. لكن لا أثر لـ (سارة) ولا (أندرو) ..

فقط حين خرجت (هيلين) من الكوخ ؛ رأت حبلا سميكا ينزلق من نافذة غرفة (جون) و (سارة) إلى أسفل .. وفى نهايته وجدت عقدة تدل على أن شيئا كان متعلقا به ..

وعلى الجليد ترى آثار أقدام .. قدمين فى الواقع لا أكثر ..

ولو كان من يرى الأثر هنديًا متمكنا من فنه لقال : إن صاحب الأثر كان يحمل شيئا ثقيلا على كتفه ، وربما قال : إنه يرتدى العوينات ..

قال (جون) وهو يتأمل الآثار ويعابث لحيته :

- « الأمر واضح .. هو خطفها ..!.. انتهز فرصة جلوسنا نتحدث بالطابق السفلى وربطها إلى حبل أدلى به من نافذة غرفة نومنا .. ثم هبط بدوره على ذات الحبل إلى أسفل .. وحملها مبتعدًا .. »

- « وكيف لم تشعر (سارة) ؟ »

- « من يدرى ؟.. ربما خنقها أو أفقدها الوعى ..
وربما هو شىء دسه فى شرابها أمس .. ، وأحسبه
نهض من الفراش فلم يجدك .. وهبط فى الدرج بحذر
ليسمع طرفًا من محادثتنا .. عندئذ اتخذ قراره .. »

- « ولماذا يفعل ذلك ؟ »

هزّ كتفيه فى عصبية :

- لا يمكن معرفة منطق المجانين .. وزوجك مجنون
بلا شك .. ربما هى ذاهبة لملاقاة مصير (ساندرا) ..
وربما هو يريد أن يجبرنا على دخول المستنقعات ..

كان يتكلم وهو يمشى عائدًا إلى الكوخ .. وراءه
(هيلين) يلف على ذراعه حبلاً .. ويمسك بالسلاح
الوحيد المتاح هاهنا : محراك النار ..

- « ودعنى أصارحك أنه لو كان يبغى (جر رجلنا)
إلى المستنقع فقد نجح !.. أنا ذاهب إلى هناك !.. » .

ومدّ يده فتناول سكينًا كبيرًا من على المنضدة دسه
فى نطاقه .. وقال :

- « (هيلين) .. ستغفرين لى ذبح زوجك العزيز ..
أليس كذلك ؟.. إننا جميعًا نرتكب حماقات .. »

- « هـ .. هل .. ستـ .. تفعل ذلك ؟ »

- « لو كان قد آذى شعرة واحدة من رأسها .. والآن
هل تؤثرين البقاء أم الذهاب معى ؟ »

تبقى فى هذا الجحيم ؟ ما أسخف السخف !

- « حتمًا سأذهب معك ! »

★ ★ ★

فى الخارج يتصاعد بخار الماء من الأفواه - من
جديد - كبالونات الكلام فى القصص المصورة ..

تلهث (هيلين) وهى تنقل قدميها فوق الجليد الزلق
على الأرض ، وقد دست يديها فى سترتها الجلدية
المبطنة بالفراء .. ويدها اليسرى تعتصر مفكرتها فى
عصبية .. لقد صممت على أن تواكب الأحداث بدقة
تامة كتابة ..

اليوم هو أول أيام العام ١٩٦٨ ..

كيف نسيت ذلك ؟.. لقد جرفتها الأحداث فى تيارها ،
لكن العام الوليد يبتدئ بداية غير مشجعة ..

وأمامها يمشى (جون) فاردًا قامته الفارعة (إذن
قامته فارعة) وشعره الأشقر يتطاير فى الهواء البارد .

ومن بعيد تنتظر المستنقعات ..

★ ★ ★

اللعنة !.. إنها الرابعة بعد منتصف الليل يا رفاق !
لم يذكرنى أحدكم أن آخذ جرعة المضاد الحيوى فى
الثالثة كما طلبت منكم مرارًا .. يا لكم من قساة !..

لحظة حتى أملأ كوب الماء .. ها هى ذى (الكبسولة) .. لماذا يسمون المضادات الحيوية هذه الأيام بهذه الأسماء العجيبة التى لا تعيها الذاكرة ؟ فى شبابى لم يكن هناك سوى (السلفا) و (البنسللين) و (الكلورامفنيكول) .. و .. جلوب جلوب !..

بالشفاء يا (رفعت) يا أظرف شيوخ الأرض وأذكاهم .

والآن نواصل السرد .. فقط ذكرونى أن الجرعة التالية هى فى التاسعة صباحًا .. لن أسامحكم لو نسيتم .

* * *

أين كنا ؟..

آه !.. (جون) و (هيلين) قد وصلا إلى المستنقعات ..

تقول (هيلين) فى عبارات مقتضبة : إن المستنقعات كانت كئيبة المنظر .. ممتدة إلى ما لا نهاية فى ظل الأشجار العجوز المحيطة بها ، وكانت هناك تجمعات جليدية خادعة تسبح على سطح المياه الآسنة .. مما يجعل محاولة السير أقرب إلى الانتحار ... وإن كانت أبخرة غاز (الميثان) منعقدة فوق المياه مما يدل على أن هناك حياة عضوية من نوع ما فى هذا المكان الرهيب ..

نظر لها (جون) فى قلق .. وغمغم :

- « سيكون هذا عسيرًا .. »

وبطرف لسانه الأحمر بلل شفته السفلى (إذن نحن نعلم أن لسانه أحمر) .. وأردف :

- « تمشين خلفى إذن .. سأتحسس كل موطئ قدم بمحراك المدفأة .. واحرصى على عدم الانزلاق .. »

- « وإذا جاء الليل ؟ »

غمغم فى نفاد صبر :

- « سنعود .. ونكرر البحث غدًا .. »

- « لكننا سنضل الطريق هنا .. إنها مصيدة حقيقية !»

أعاد تثبيت القفاز على كفه .. وقال فى عصبية :

- « حقًا لم أعد أعرف ما ينبغى وما لا ينبغى .. بمقدورك العودة لو أردت .. »

- « هذا لن يكون .. »

- « إذن .. الصمت الصمت ! »

* * *

واستمرت المسيرة الحذرة فوق الأراضى الصلبة التى تفصل بين شبكة المستنقعات وبعضها ..

إن الرؤية متعذرة على بعد عشرة أمتار بسبب البخار اللعين الذى يملأ المكان .. بخار أو ضباب لا يهم .

المهم أنه رديء ..

وفجأة تصلب (جون) ..

انحنى على الأرض والتقط شيئا ما ..

كان هذا الشيء كراسا تلوث بالوحل والبلل .. لكن عنوانه ظل قابلا للقراءة ..

كان عنوانه هو (الكلمات) ..

★ ★ ★



وفجأة تصلب (جون) ..
انحنى على الأرض والتقط شيئًا ما ..

٩ - أسطورة رعب المستنقعات ..

شيء ما يتحرك هناك بين ضباب المستنقعات قادما نحونا .. بعد ما انتظر قرونا .. إننى لا أرى وجهه ولا أتمنى أن أراه ... لكنه ملوث بالأوحال ..

★ ★ ★

- « إذن مر (أندرو) هنا .. لكنى لا أرى آثار قدميه .. » .

قالها (جون) وهو يتفحص الجليد بعناية ..

وبلمح البصر نظر إلى غصون الشجرة فوق رأسيهما .. لقد خطر له أن هذا قد يكون كمينا من (أندرو) .. لكن المذكور لم يكن هناك .. فأطلق (جون) زفرة ..

قالت له (هيلين) متوسلة ..

- « أريد الجلوس .. خمس دقائق لا أكثر .. » .

- « ليكن .. ما دمنا فى الطريق الصحيح .. » .

جلست مريحة ظهرها إلى جذع الشجرة ، وأشعلت لفافة تبغ .. ثم أخرجت مفكرتها وراحت تدون الأحداث الأخيرة بسرعة هستيرية ... قال فى تهكم :

- « لم أر قبطان سفينة حريصا كل هذا الحرص على تدوين مذكراته .. »

كانت تضم فخذيها إلى صدرها حيث جلست ، متخذة من ركبتيها منضدة تدون عليها .. ولم تصغ جيدا إلى ما قال إلا حين فرغت من الكتابة ..

عاد يسألها :

- « ما كل هذا الحرص على تدوين المذكرات ؟ »

- « لا أدرى .. ربما هى رسالة أريد تركها لمن يجد جثتينا ! »

- « أما هذا فلا .. إن المفكرة ستضيع للأبد فى المستنقع ولن يجدها أحد .. » .

وانتظر أن تقول شيئا .. لكنها ظلت شاردة .. ثم غمغمت وهى تتأمل حلقات الدخان ..

- « لماذا تغير هكذا ؟ »

- « من ؟ »

- « (أندرو) طبعا .. »

قال لها وهو يمد ساقيه أمامه ..

- « الأمر واحد من اثنين .. إما أنه مريض نفسيا تفاقم مرضه لسبب لا أدريه ، وإما أنه ضحية نوع من الاستحواذ الشيطانى .. وهو شيء لا أستبعده وسط كل هذه التعاويذ واللعنات والسحر القديم .. » .

ثم نظر لها فى تركيز .. وأضاف :

- « لن يكون هناك فارق كبير فى حالتنا هذه .. فأنا حين أقتل كلبا هائجا لا أهتم كثيرا بمعرفة هل هو مسعور أم غاضب فقط .. »

وأردف وهو ينهض :

- « والآن .. هيا بنا .. قبل أن تدمن مفاصلنا الراحة أو نتحول إلى لوحى ثلج حيث نحن .. »

معا واصلا السير بين المستنقعات ..

لا صوت هناك سوى صوت لهاثهما .. وخطواتهما المتعبة المتعثرة فوق الجليد الهش ..

فجأة يتصلب جسد (هيلين) وتمسك بذراع (جون) فى عصبية .. وتشير إلى المستنقع ..

على الماء المتجمد يرى (جون) طرفا من ثوب .. ثوب يعرفه جيدا لأن (سارة) كانت نائمة به أمس !

- « يا للسماء ! »

صرخ فى هستيريا ، واندفع نحو المستنقع ..

لكن (هيلين) ظلت متشبثة بذراعه .. وهتفت محذرة :

- « حذار يا (جون) !.. ستهوى هناك .. »

كان يعرف جيدا أن السقوط فى هذا المستنقع يعنى النهاية ، لأن الأوحال تنزلق تحت قدميك إلى ما لا نهاية ، وتغدو محاولة الوقوف فيها مستحيلة ..

إن للأوحال قوة تفريغ غير عادية ، حتى لتشعر أن وحشا عملاقا يبتلعك إلى أحشائه .. ومهما تشبثت فلا جدوى ..

حقا يعرف كل هذا لكن ما العمل ؟

هل يترك زوجته - أو جثتها - عائمة هكذا وسط الأوحال ؟

أضف لهذا أن (سارة) شابة وهو لم يملها بعد .. يعنى هذا أن فقدها مازال يمثل خسارة له ..

وقف يحاول مد محراك المدفأة إلى أقصى امتداد له .. حتى تمكن من لف طرف الثوب حول طرفه .. ثم راح يحاول جذب الثوب نحوهما ..

كان الثوب خاليا .. لا يدرى أهذا من حسن حظه أم سوئه ؟

لو كانت (سارة) بداخله لكانت جثة هامدة .. لكن معنى أنها خارجه هو أن شيئا ما حدث لها ..

قالت (هيلين) فى توتر :

- «.على الأقل هى مازالت حـ..... »

صفعة هائلة انهالت على خدها .. فتجمدت الدموع
على عينيها ولم تجد الكلمات لتتساءل عن السبب ..
قال لها (جون) وعلى وجهه تعبير وحشى :
- « لو أن مكروهًا أصاب زوجتى فلسوف أفعل
ما هو أسوأ من ذلك لزوجة (أندرو) .. هل تفهمين
ما أعنيه ؟! »

لم ترد لأنها ظلت واقفة تدارى وجهها ..
حتى أنت يا (جون) صرت خطرًا داهمًا .. يا لك
من أحمق !.. تحسب أن (أندرو) يهتم لحظة لو وجد
جثتى مشنوقة فى شجرة أو ممزقة إربًا .. إن الأمر
لا يعنيه أبدًا ..

دقائق عسيرة مرّت بهما ، ثم قال (جون) بصوت
مبحوح :
- « اغفرى لى .. ما كنت أتحدث إلا كذبًا .. لقد فقدت
التحكم فى أعصابى تمامًا .. »

ابتسمت بركن فمها الأيسر قائلة :
- « أوه .. أنا مثلك .. فلننس الماضى .. »

لكنها كانت تعرف أنها لن تنسى ..
من الذى ابتكر الصفع ؟ من العبقرى الذى عرف أن
مركز الكرامة يقع تشريحيًا تحت الخدّ ؟ بحيث تشكل
الصفعة ضربة مركزة إلى كرامة المرء ؟

وتمنت أن تركله فى مؤخرته لتشفى غليلها .. لكنها
لم تجرؤ على ذلك قط .. ، الموقف لا يسمح بالانتقام ..
ومعًا يواصلان السير بين المستنقعات اللعينة ..
لاهثًا قال (جون) وهو يتحسس مواطئ قدميه :
- « أعتقد أننى كونت فكرة جيدة عما ينتويه زوجك ..
إن الرجل يؤمن بـ (إكليبوس) شيطان المستنقعات
مثله مثل كل شىء آخر اعتقد (السلت) به وصدقه
زوجك .. ، وكما قال لى : فإن القوة المطلقة تنبع من
غمر الضحايا فى المستنقع من أجل (إكليبوس) ..
وأحسب (أندرو) قد مارس هذا الطقس شبه الدينى
مرارًا .. والفتاة (ساندرا) هى دليل على أن هناك
آخرين .. استدرجهم (أندرو) إلى المستنقعات
وغمرهم فيها ، لابد أن هناك نداء معينًا يخبر
(إكليبوس) أن العشاء معدّ .. وأعتقد أن هذا هو سر
العبارات الغامضة التى رددها البارحة فلم نفهمها .. » .

وبلل شفتيه بلسانه وأردف :
- « يبدو أن القرابين الفردية لم تكن مجدية .. هنا
فكر (أندرو) فى تضحية جماعية (دسمة) تتكون من
زوجين وزوجته هو نفسه الخاصة .. أعتقد إذن أنه
تخلص من - أو ينوى التخلص من - (سارة) ..

وبعدها يجيء دورك فدورى .. هذا سهل وهين عليه ..
فهو يجيد قواعد اللعبة .. نحن نعبث هاهنا وفقا
لشروطه وعلى أرضه .. » .

- « وعندئذ يتحرك (إكليبوس) هذا ؟ »

- « لا أعتقد فى وجود (إكليبوس) لحظة .. إن
(إكليبوس) هذا لا يمثل سوى نفسية زوجك المعقدة ..
فقط فى عقل (أندرو) توجد مستنقعات متشابكة يسيطر
عليها مسخ جائع يطلب القرابين .. »

هنا توقفت (هيلين) وللمرة الأولى لاحظت
سألها وقد لاحظ أنها لم تعد تتبعه ..

- « هل حدث شيء ما ؟ »

قالت بصوت متحشرج :

- « لقد زحف الليل ..! »

* * *

ويمر الوقت ..

ومع مروره تزداد صلابة وعناد هذا العدو الحاقد :
الظلام .. إنه لا يتعب ولا يترك ركنا فى المستنقعات إلا
ويرمى عليه عباءته الزرقاء السميكة ..

بعد دقائق ستتحول العباءة إلى اللون الأسود ،
وستصير الرؤية متعذرة .. بل مستحيلة ..

- « فلنرجع يا (جون) .. »

- « لم يحن الوقت بعد يا صغيرة .. »

- إننا ننتحر .. ولا توجد مبررات كافية ..

كان يحتفظ فى جيبه بكشاف صغير ، أخرجه ..
وأضاءه .. إضاءة لا بأس بها لكنها غير كافية كمًا
ولا كيفا .. وهو أحمق إذا ظن لحظة أنه قادر على
مسح المستنقعات بهذا الضوء الذى لا يكفى لفحص
لوزتى طفل ..

- « فلنعد يا (جون) أرجوك .. »

- « إذا شئت تستطيعين العودة .. ! »

نظرت وراءها .. إلى كل هذا الظلام الرابض
ككابوس تحت غصون الأشجار .. إلى كل الأميال التى
اجتازها منذ الصباح .. وأدركت أنها لن تعود أبدا ..

قشعريرة باردة سرت عبر عمودها الفقرى .. على
الأقل مع (جون) هى لا تعرف كيف ولا متى ستموت ..
أما وحدها فهى تعرف أنها ستموت غرقا فى المستنقع
بعد خمس دقائق ، أو هلعا بعد ساعة ..

وواصلا المسير .....

كانت الخطوات قادمة على بعد عشرة أمتار ..
سمعتها وسمعها (جون) فى اللحظة ذاتها ..

* * *

نظر لها نظرة ذات معنى ، وإلى فمه رفع سبابته يأمرها بأن تصمت .. وأطفأ الكشاف ووضعه على الأرض الجليدية ..

وعلى الأرض جلسا يترقبان ..

كان المستنقع هادئا بمنظره الخادع ، يمتد إلى مسافة عشرين مترا لو أن حاسة المسافات عندها صادقة ..

وبرغم الظلام كان هناك ضوء فوسفورى خافت يغلف المكان .. هى ظاهرة طبيعية قرأت عنها ثم نسيت كل شىء .. التخمر أو الكهرباء الاستاتيكية لا تذكر بالضبط .. يوما بعد يوم تدرك أنها لم تحتفظ بشىء مما تعلمته طوال حياتها سوى القراءة والكتابة ..

لسوف تراجع هذا كله فيما بعد .. فيما بعد ..

أما الآن فهى ترى من يمشى على الناحية الأخرى من المستنقع !

وتنظر إلى (جون) فتراه يرمق المشهد فى انبهار .

برغم الظلام يمكنها أن تتبين حدود هذا الشىء أو الشخص الذى يمشى هناك فى ثقة ، كأنما التعثر فى الأوحال أمر مستحيل الحدوث ..

الشعر المتسدل على الظهر .. هذا القوام ..

إنها (سارة) ! من غيرها ؟

* * *

١٠ - الفصل الختامى ..

شىء ما يتحرك هناك بين ضباب المستنقعات قادما نحونا .. بعد ما انتظر قرونا .. إننى لا أرى وجهه ولا أتمنى أن أراه .. لكنه ملوث بالأوحال وله رائحة الموت ذاته ..

* * *

صرخ (جون) فى هستيريا :

- « (سارة) ! »

ووثب على قدميه جاريا نحو الفتاة ..

لكن (هيلين) جذبته من ذراعه فى حزم .. وهمست :

- « (جون) .. لا تكن أحمق .. ستسقط فى الأوحال »

بحماس مجنون :

- « لكنها مازالت حية .. حية ! »

همست من جديد فى حزم :

- « لا أدرى .. إن شيئا معينا فى مظهرها لا يريحنى .. هذه المشية المتصلبة و ..... ثم لماذا لم ترد على ندائك ؟ »

ـ « ألم تفهمى بعد ؟.. إنها مصدومة عصبيًا .. لقد أفزعها الوغد حتى الموت .. »

ـ « (جون) .. أنا لست مستريبة .... »

لكنه كان قد انفلت من يدها ، وركض نحو الفتاة ..

* * *

للأسف توجد على هذه الصفحة بقعة كبيرة أزالت أكثر ما عليها من كتابة .. وهو عيب متكرر فى المفكرة كلها ..

لهذا من المتعذر علىّ أن أعرف يقينًا وصف (هيلين) لما حدث بعد محاولة (جون) الخرقاء ..

لكن يمكننا أن نؤكد ـ دون خطأ كبير ـ أن (جون) لقى حتفه أمام عينى (هيلين) المذعورتين ..

كما يمكننا أن نؤكد أنه هلك غرقًا فى المستنقع حين عبره فى الظلام متخليًا عن حذره ..

أما عن (سارة) وما فعلته بعدها ، وأين ذهبت ؟ فكل هذه أسئلة تستحيل الإجابة عنها ..

* * *

يمكننى فقط أن أتخيل الذعر الذى أصاب (هيلين) .
بالتأكيد لم تحاول مدّ يد المساعدة لـ (جون) لأنها تعرف أنه سيجذبها معه إلى المستنقع ، ولن يتخلى عنها أبدًا .. هكذا يفعل الغرقى فى كل مكان وزمان ..

بالتأكيد تناولت الكشاف الذى تركه على الأرض .. وهرعت تغادر المكان مولولة مرتجفة ..

لا ألومها كثيرًا فى الواقع وهى حبيسة المستنقعات المظلمة .. لا تملك الفرصة للتقدم ولا للتراجع .. ولا تعرف حتى كيف تعود لو كان الوقت نهارًا ..

لقد هلك الرجل .. وكم كان مفيدًا لها .. هذه هى فائدة الرجال الوحيدة .. أنهم أقوى وأنهم يستطيعون الشجار لفترة تسمح للنساء بالفرار ..

والأدهى أنها تعلم جيدًا أن (أندرو) ـ الذى جن تمامًا ـ يمسح المستنقعات الآن بحثًا عنها .. ولسوف يجدها .. حتمًا سيفعل ..

* * *

لابد أنها جلست تحت الشجرة ..

وعلى ضوء الكشاف الواهن ، وبخط لا يكاد يُقرأ .. شرعت تدون الأحداث الأخيرة بسرعة وعصبية ..

كانت هذه المرة تدرك يقينًا أن النهاية دانية ، وكانت بحاجة لترك شىء للعالم .. كى يعرف من يجدون جثتها ما حدث حقًا ..

لو كان الوقت صيفًا لقضت ليلتها حيث هى ، وحاولت العودة فى نور الصباح ..

لكن هذا الزمهرير .. إن البقاء بلا حراك فيه لا يعنى سوى الموت .. الموت حيث هى متحولة إلى تمثال ثلجى ..

وهكذا عادت تتحسس طريقها ..

* * *

كانت تتحسس طريقها ..

ترمق الأرض الجليدية فى تركيز غير عادى ..

حين شعرت بذراع تتجه فى عنف نحو وجهها ..

* * *

يوما ما قال لها (أندرو) فى لحظة صفاء :

- « لقد عشت كثيرا من الرعب فى طفولتى .. وتمنيت أكثر من مرة أن أكبر بسرعة لأرعب الآخرين .. »

قالت ضاحكة :

- « ظننتك تمنيت أن تكون مهندسا .. أما عن رغبتك فى أن تصير مرعبا فهو - لعمرى - طموح مبالغ فيه !.. »

- « أنا أحب أن أخيف وأخاف .. »

- « وأنا تزوجت هذا المخبول ؟ »

قال وهو يلثم أناملها :

- « المخبولون يعرفون كيف يحبون بصدق .. »

* * *

ولم يكن الذراع سوى غصن شجرة أكثر انخفاضا من المعتاد ..

أجفلت وتراجعت للوراء .. ثم رفعت عينيها ..

عندئذ لم تصدق ما تراه ..

كان الكوخ ينتظرها على بعد أمتار معدودة !..

* * *

كيف حدث هذا ؟ أية معجزة ؟

أغلب الظن أنها دارت حول نفسها فى أثناء مسيرتها على غير هدى .. وأنها وجدت طريقا مختصرا عاد بها إلى الكوخ ..

الكوخ الذى بدا لها كواحة فى صحراء جرداء .. كمقعد يقدم لمريض قلب فى أثناء صعوده إلى ناطحة سحاب .. كأسير رومانى بدين يلقى لأسود طال بها الجوع والطوى ..

المهم الآن أن تصل إليه ..

المهم ألا تتعثر ..

ها هو ذا يقترب ..

عشر خطوات وتصل إليه .. وبداخله ينتظر الطعام والدفء والأمن .. أما زال هناك أمن فى هذا العالم حقًا ؟

خمس خطوات ..

الباب مازال مفتوحا كما تركته فى الصباح حين خرجت مع (جون) .. كل ما عليها هو أن تدخل وتضغط زر الضوء ..

خطوتان .. لقد دنت كثيرا ..

كان ذلك حين شعرت باليد الفولاذية تعتصر ساقها ..

* * *

إنها التاسعة صباحا !..

تصوروا أننى لم أنم بعد بسبب استغراقى فى سرد هذه القصة لكم ؟!.. كل هذا وأنا مريض ، وقد حان وقت تناول كبسولة المضاد الحيوى .. جلوب جلوب !.. أشكركم من جديد على نسيان الموعد .. أنا الذى حرمت النوم على نفسى قبل أن أفرغ من قصتى هذه ..

أين كنا ؟..

آه !.. موضوع اليد الفولاذية .. هذا جميل ..

* * *

حين فرغت من الصراخ والعويل ؛ أمكنها أن تنحنى جاثية على ركبتيها لترى ما هنالك ..

وعندئذ رأت وجه (أندرو) ..!.. زوجها !..

كان راقدا فوق الجليد .. ووجهه أكثر شحوبًا من وجوه الموتى .. برغم كونها لم تر ميتا فى حياتها ..

كان مغمض العينين .. لكن شفتيه كانتا تهتزان .. تقولان ما لا يمكن سماعه ولا فهمه ..

كانت تخافه وتمقته الآن كأنه ثعبان ذو جرس .. لكنه زوجها مهما حدث ..

ماذا دهاه ؟.. ما الذى ألقى به ضحية واهنة بعد ما حسبته يبحث عنها ليقتلها ؟.. من فعل به أى شىء بالضبط ؟

على كل حال .. استجمعت قواها وراحت تجذبه إلى داخل الكوخ .. وعلى الأرض أراحت جسده ..

أضاءت النور الكهربى .. فأمكنها أن ترى أنه غارق فى الأوحال ورقائق الجليد .. يرتجف كورقة ..

لم يبد لها مرعبًا إلى الحد الذى تصورته ..

وراحت تمسح جبينه بأناملها محاولة إرغامه على فتح عينيه ..

وقد كان ..



وعندئذ رأت وجه (أندرو) .. زوجها ! ..
كان راقداً فوق الجليد .. ووجهه أكثر شحوباً ..

أول ما قاله بصوت مبحوح وهو يرمقها بعينيه الحادتين :

ـ « (هيـ ... هيلين) .. أ .. أنت بخـ .. بخير .. »

ـ « هل تأسف لهذا ؟ »

سعل كما يفعل المحتضرون .. وهمس :

ـ « سا .. سامحيني .. »

ـ « هل حقًا فعلت ما أظن أنك فعلته ؟ »

لم يرد .. فجذبته من ياقة سترته فى خشونة جعلته يتأوه ..

وكررت سؤالها :

ـ « هل حقًا فعلت ما أظن أنك فعلته ؟ »

ـ « (إكلييوس) ! »

قالها بصوت كالفحيح وهو ينظر إلى السقف ..

قالت بانفلات أعصاب حقيقى ..

ـ « أنت تخرف ! لا يوجد شىء كهذا سوى فى عقلك .. »

ـ « ر .. ربما .. لـ .. لكنى لـ .. لن أعرف أبـ .. أبدا ! »

ـ « من فعل بك هذا ؟ »

سألته وهى تتفحص جسمه .. لم تكن هناك جروح

واضحة ولا كسور .. ثم .. رأت ذلك الثقب بين طيات
سترته ما بين الضلـوع .. هنـاك مـن طعنـه بجسم
مدبب .. شىء يشبه الرمح الرفيع جداً ..
قال وهو يغمض عينيه من جديد :
- « لقد قتلتنى .. ى ى ! »
- « من هى ؟ »
- « (سا .... سا ....) »
وفرغت الحياة منه كما تفرغ البطارية فى دميـة
أطفال فتكف عن الحركة والكلام ..
وعرفت (هيلين) أن (سارة) حية .. وأنها قـد
استطاعت أن تدافع عن نفسها .. وأن تقتل قاتلها ......
ولكن أين (سارة) إذن ؟
لماذا لم تظهر ؟
إن آخر مرة رأتها فيها كانت وهى تعبر المستنقعات ..
وكانت مختلفة فى كل شىء .. لم ترها ولـم تتبيـن
ملامحها لكنها هى حتماً .. من غيرها ؟

* * *

الثانية بعد منتصف الليل :
ليس كونك أرملة سيئاً إلى هذا الحد .. بل لعلك
شاعرة بشىء من الراحة لذلك ..

إن (أندرو) الآن جثة هـامدة بالطابق السفلى ولن
يؤذيك .. وأنت هنا آمنة مطمئنة وقد انتهى الكابوس ..
لم يبق لك سوى أن تحاولى العودة فوق أخشاب
الجسر مع أول ضوء للنهار ..
وبخط مستقر ثابت كتبت (هيلين) :
« لا أدرى .. لم أتصور فى حياتى أن الوحدة يمكن
أن تكون مبهجة إلى هذا الحد ... وللمرة الأولى أشعر
بالراحة والاطمئنان فى هذا الكوخ المقيت .. »
« حتى وأنا أشعر بأن باب الكوخ ينفتح ببطء لم أعد
أخـاف شيئاً لأن القـادم لـن يكـون سـوى الريـح أو
(سارة) ..
وحتى وأنا أسمع صو ....
....

* * *

الخاتمة ..

كان الفجر قد بزغ فى شقة (عزت) ، وكان النعاس قد بدأ يتسلل إلى جفنيه عندما انتهت آخر أوراق المفكرة ..

فأغلقتها .. ووضعتها فى جيبى ..

- « (عزت) .. »

- هم م م م !

- « أنا عائد إلى شقتى .. شكرا على كل شىء .. »

حرك يده بما معناه ألا داعى للشكر لأنه لم يقم إلا بواجبه تجاه صديق مخبول ..

وعدت لشقتى ففتحت الشرفة ، واستنشقت هواء الفجر البكر .. هواء له رائحة .. ورائحته لها لون .. لا أدرى كيف .. هواء لم يتلوث بعد .. ولم تغيره مصاعب الحياة ومشاقها ..

فلم يتعلم الرياء ولا الكذب ..

وقبل أن أنام (اليوم الجمعة لحسن الحظ) أعدت التفكير فى هذه القصة ..

أولا : واضح أن (هيلين) لم تعش بعد كتابتها للسطر الأخير .. وإلا لأكملت آخر كلمة ..

ثانيا : من قتلها ؟

ثالثا : من قتل (أندرو) ؟

رابعا : هل (سارة) هى قاتلة (أندرو) و (هيلين) ؟!

خامسا : هل (إكليبوس) حقيقى ؟

سادسا : لماذا لم تستجب (سارة) للنداء عليها ؟ ولماذا بدت مختلفة ؟

سابعا : من الذى استنقذ المفكرة ؟

وهنا بدأت أتوتر ..

تناولت الخطاب المرفق مع المفكرة .. وأعدت قراءته مرارا فلم أر ما يريب ..

الاسم : (س . ب) يشير إلى (سارة) .. إذن (سارة) قد عادت إلى الكوخ وأنقذت المفكرة وأرسلتها لى ..

وهى قاتلة (أندرو) وربما (هيلين) .....

لكن لحظة .....

إن اسم (سارة) بالكامل هو (سارة ستوكلى) .. (س . س) .. وليس (س . ب) ..

فمن هى (س . ب) ؟

وبدأ شعر رأسى ينمو توطئة لأن يشيب ..

دفنت رأسى فى الوسادة وتلوت المعوذتين وآية الكرسى عازمًا أن أنام قبل أن أفكر فى أفكار مجنونة ..

صحيح أن (سارة) و (ساندرا) اسمان متشابهان .. وصحيح أن (ساندرا) تدعى (ساندرا بيكيت) أى (س . ب) .. وصحيح أنها تملك كل الأسباب للانتقام من (أندرو) قاتلها ومن زوجته ؛ إلا أن تصديق هذا مستحيل ..

(أندرو) تحدث عن (العائدين) من المستنقع بعد منتصف الليل .. فهل (ساندرا) منهم ؟

لم يكن هناك شيء يدعى (إكليبوس) .. ولكن ربما كان هناك ما هو أشنع وأخطر ..

يجب أن أنام !.. يجب .....

* * *

سأحاول أن أنسى هذه القصة وأعدم المفكرة اللعينة الملوثة بالأوحال .. ولكنى قلق على (عزت) الذى تلا هذه المقاطع بصوت عال ..... ماذا سيحدث له ؟

ومحاولاً النسيان أحكى لكم فى المرة القادمة قصة مسلية بلا رعب على الإطلاق ..... مجرد مغامرة فى أغوار النفس البشرية ..

ولكن هذه قصة أخرى .

د . رفعت إسماعيل
القـاهرة

* * *

رقم الإيداع : ١٦٠٦

المطبعة العربية الحديثة
٨ و ١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية بالعباسية
القاهرة - [illegible]